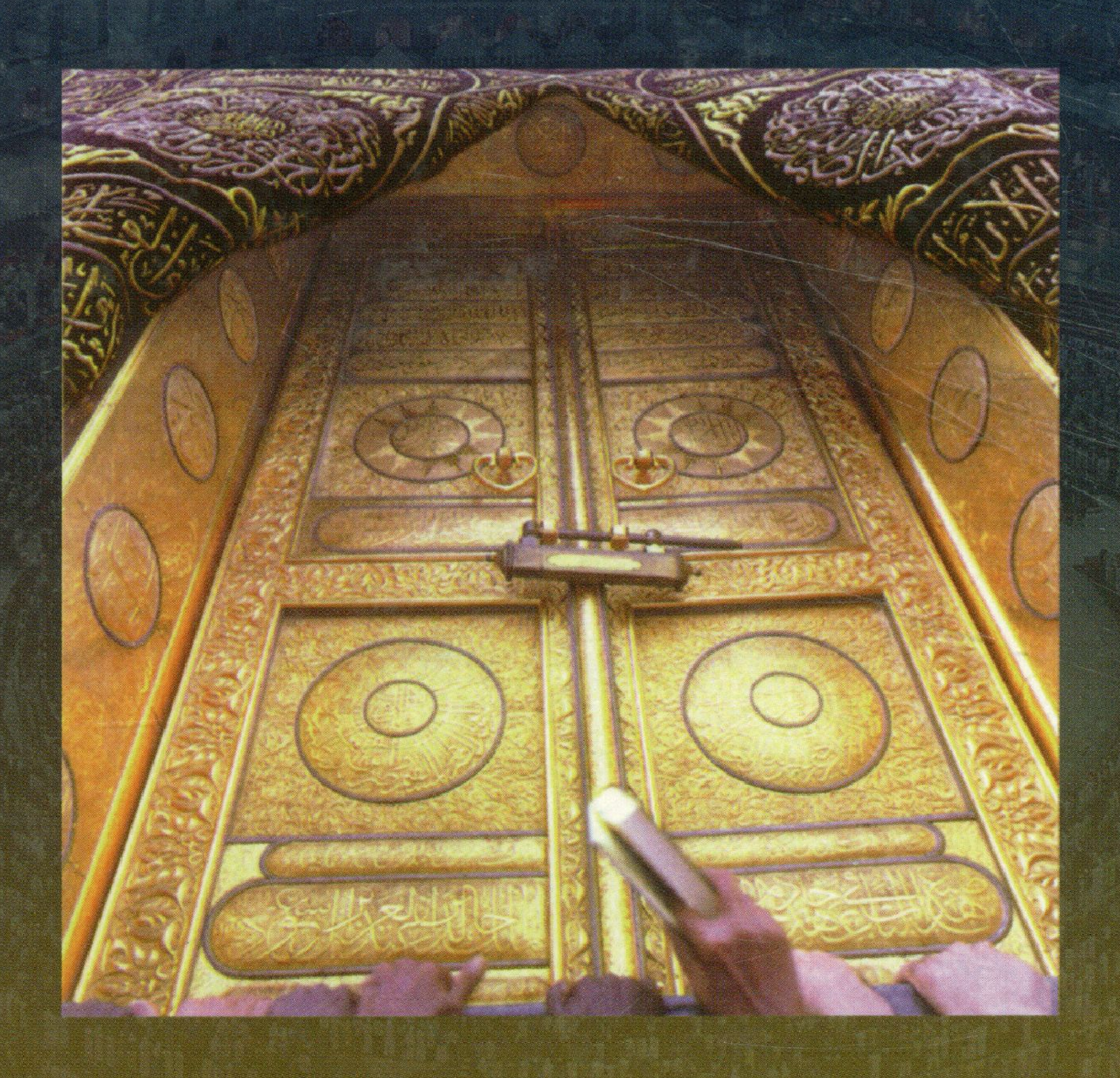
ثقافة مكة المكرمة

في أدب الرحلات وسير أعلامها

إعداد

الدكتور إبراهيم بن عبد الله السماري

عضو الجمعية السعودية للدراسات الدعوية



ثقافة مكة المكرمة

في أدب الرحلات وسير أعلامها

ح د. إبراهيم بن عبدالله بن عبدالعزيز السماري ١٤٢٦هـ/٢٠٠٦م .
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر .
السماري ، إبراهيم بن عبدالله بن عبدالعزيز .
ثقافة مكة المكرمة في أدب الرحلات وسيَر أعلامها . / إبراهيم بن عبدالله السماري . — الرياض، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م .
٢٠٨ ص ؛ ٢٤ سم .
ردمك : ٦-٠٥٣-٥٢-٩٩٦٠
١ – مكة المكرمة – تراجم ٢ – مكة المكرمة – تاريخ ٣ – مكة المكرمة – وصف رحلات
أ – العنوان
ديوي ٩٥٣،١٢١ ٢٦ / ٧٧٥٠
رقم الإيداع : ١٤٢٦/٧٧٥٠
ردمك : ٦-٠٥٣-٥٢-٩٩٦٠

الطبعة الأولى ١٤٢٧هـ
alsmariibrahim@hotmail.com
هاتف نقال : ٠٥٠٥٤٦٦٥٠٩
المفتاح الدولي = ٩٦٦+

الطبعة الأولى
١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦م

ثقافة مكة المكرمة

في أدب الرحلات وسير أعلامها

إعداد

الدكتور إبراهيم بن عبد الله السماري

عضو الجمعية السعودية للدراسات الدعوية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾﴾

البقرة : ١٢٦.

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، أما بعد :

فإن أدب الرحلات أدب شائق لأنه تجسيد للتجربة الإنسانية ، ووعاء أمين لنقل المشاعر والمعاناة وماهو قريب من الوجدان في لحظة الحدث ، وتزيد أهمية هذا الأدب عندما تصاغ تلك المشاعر بيد ماهرة، تستخدم كلمات معبرة ، وأدوات لغوية جاذبة.

ويصبح تعلق القاريء بهذا الأدب أكبر إذا أصبحت تلك المعاناة أثراً بعد عين ، مما يغري الحاضر بتعقب معاناة الماضي ، ورسم صورة واضحة للفرق بين حقبتين تاريخيتين مختلفتين في كثير من عناصر عطائها وتفاعلها وظروف معاشها وعلاقاتها الاجتماعية وطريقة تفكيرها إلى آخر مايتعلق بإنتاج الفكر الإنساني .

أي أن الرحلة تكتسب أهمية خاصة ونكهة مميزة إذا كانت بعيدة العهد وتصف ماضياً غابت رسومه أو تغيرت ملامحه ، بفعل تطورات الحياة أو عوامل النهضة ، نتيجة التغيرات الاقتصادية أو الاجتماعية أو السياسية .

والرحلات مصدر مهم من مصادر المعرفة عموماً ، وهي كذلك مصدر مهم من المصادر التاريخية ؛ لأنها تتضمن الإشارة إلى الأحداث

والوقائع والتعريف بالأمكنة والأشخاص ووصف الحالة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في زمن محدد هو زمن الرحلة التي تتحدث عن مكان (ما) أو حادثة (ما) كما تتحدث عن طبيعة العلاقات والمعاملات التي تحكم سير المجتمعات البشرية في حقبة تاريخية معينة وهكذا.

ومما يزيد أهمية مصدر الرحلات أن الرحلة تصاغ في الغالب بأسلوب أدبي مميز، ولاسيما إذا كانت لدى المؤلف أو كاتب الرحلة ذائقة أدبية وبلاغية ثرية .

كما أن الرحالة يحرص على الاتصال بالأشخاص العاديين الذين هم عادة يعبرون عن انطباعاتهم وانفعالاتهم بعفوية واسترسال لاتقيده قيود التحفظات ؛ بحكم أنهم يتحدثون في مجالسهم ومع أشخاص يشاركونهم حياتهم .

ولابد أن أنوه إلى أن غالب الرحلات التي وصفت أو سجلت معلومات دقيقة وعلمية إلى حد (ما) عن جغرافية الجزيرة العربية وتاريخها ، وربما كانت هي المصادر الأجنبية المكتوبة الأولى في هذا المجال قام بها رحالة أجانب ، أصبحوا أعلاماً ، مثل سادلير وبلجريف وشكسبير وليتشمان وفيسي وفيلبي وغيرهم كثير جداً .

لقد كانت الرحلات بصفة عامة والرحلات الحجازية بصفة خاصة معيناً متجدداً للباحثين والدارسين الغربيين ؛ حيث ترجمت كثير من الرحلات إلى أكثر من عشرين لغة أجنبية ، وحظي كثير منها بتعليقات

وتحقيق رموز فكرية غربية ، وبرعاية مراكز بحثية علمية مرموقة ؛ نظراً لأهميتها التاريخية والثقافية .

إن هذا هو بالذات مايحفزني إلى تناول جانب مهم من الجوانب الثقافية وهو (ثقافة مكة المكرمة في أدب الرحلات الحجازية وسِيَر أعلامها)

مبرزاً من خلال النماذج والأمثلة أهم الجهود الثقافية ، التي تعبر عن طبيعة كل عصر والمستوى الثقافة لمكة المكرمة فيه .

ولايمكنني الادعاء أن هذا البحث فتح مبين في بابه ، أو أنه سبق إلى موضوعه، غير أنني أقول بقلب مطمئن : إن الجوانب الثقافية التي وردت في الرحلات الحجازية ، والجوانب الثقافية في حياة الأعلام المكيين لم تحظَ بحقها من العناية المركزة ، القادرة على إبراز حقيقتها ، وتوضيح أبعادها ، ومن ثمَّ إبراز أهميتها في تسجيل الفعل الثقافي عبر العصور في مكة المكرمة ، يستوي في ذلك ماتم تسجيله عرضاً أثناء الحديث عن مراحل الرحلة ومشاهدات الرحّال ، وماقصد بيانه منه نتيجة غلبة المشارب الفكرية ذات الطبيعة الثقافية للرحالة أنفسهم ، وسواء ما قصد منه الجانب الثقافي عند إيراد سِيَر الأعلام ، أو ماتدل عليه تلك السير من هذا الجانب بالاستنتاج والتحليل ، ومن ثمَّ فإن الضرورة إلى مثل هذا البحث لاتزال قائمة .

وبالتالي فإن المروم من هذا البحث أن يكون لبنة في بناءٍ مأمول ؛

لتفعيل هذا الجانب الثري من ثقافتنا الإسلامية الرائدة ؛ وصولاً إلى هدف شامخ هو إصدار عمل موسوعي يوثق الجوانب الثقافية لمكة المكرمة في مختلف المجالات ، ولاسيما مجال الرحلات والتراجم .

ولعله من المناسب هنا أن أشير إلى بعض الكتب التي ظهرت فائدتها في هذا المجال ، ومن أهمها :

١ = المختار من الرحلات الحجازية ، د/ محمد بن حسن بن عقيل ، نشر دار الأندلس الخضراء ، ط١، ١٤٢١هـ، في أربعة مجلدات .

٢ = الرحلات إلى شبه الجزيرة العربية ، نشر دارة الملك عبدالعزيز ، ١٤٢٤هـ ، في جزءين .

٣ = الرياض في عيون الرحالة ، أمانة مدينة الرياض ، ١٤٢١هـ .

٤ = الحياة العلمية في مكة المكرمة في القرنين السابع والثامن الهجريين ، طرفة العبيكان، نشر مكتبة الملك فهد الوطنية ١٤١٦هـ

٥ = الرحلات المغربية والأندلسية مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين السابع والثامن الهجريين ، عواطف نواب ، نشر مكتبة الملك فهد الوطنية ١٤١٧هـ.

٦ = الحياة الثقافية في مكة المكرمة في القرن ١٩ الميلادي ، يحي محمود ابن جنيد ، نشر مؤسسة اليمامة الصحفية ، كتاب الرياض ١٠٠.

منهج البحث :

يعرِّف علماء البحث منهج البحث بأنه : (**الطريقة التي يتعين على**

الباحث أن يلتزم بها في بحثه ، بحيث يتقيد باتباع مجموعة من القواعد العامة التي تهيمن على سير البحث ، ويسترشد بها الباحث في سبيل الوصول إلى الحلول الملائمة لمشكلة البحث) (١)

أو هو : (مجموعة القواعد المصاغة من أجل الوصول إلى الحقيقة في العلم ، واختصاراً فالمنهج هو: الطريق الموصل إلى الحقائق العلمية تبعاً لقواعد يستضيء بنورها الفكر) (٢)

وللبحث مناهج متعددة ، تختلف باختلاف العلوم التي تعالجها .

ولأن الهدف من هذا البحث هو التعرف على عناصر ثقافة مكة المكرمة من خلال أدب الرحلات الحجازية ؛ لذا فقد تم استخدام المنهج الوصفي ، الذي يعتمد على جمع المعلومات حول موضوع معين؛ لتفسيرها وتحليلها ، والتعرف على جوانبها المختلفة ، ومن ثم التوصل إلى النتائج المناسبة . (٣)

مع عدم إهمال المناهج الأخرى عندما تدعو إليها ضرورة البيان .

وفي دائرة الحديث عن منهج البحث الذي اتبعته في كتابي هذا ؛ لابد

---

١ - عبدالفتاح خضر ، أزمة البحث العلمي في العالم العربي ، الطبعة الثانية ذو القعدة ١٤٠١هـ . بدون ذكر الناشر ص١١.

٢ - محمد أزهر السماك ورفيقاه ، الأصول في البحث العلمي ، ط١ نشر جامعة الموصل ١٤٠٠هـ صـ٤٢
وانظر: عبدالرحمن بدوي ، :(مناهج البحث العلمي) ، نشر دار النهضة العربية بالقاهرة ١٩٦٨م صـ٣٠.

٣ - انظر : محمد زيان عمر ، البحث العلمي مناهجه وتقنياته ، نشر الهيئة المصرية العامة بالقاهرة ١٣٩٤هـ، صـ ١٠ .

من التنويه إلى أن الحديث عن الأعلام يتطلب سرداً سلساً ومتتابعاً ، لذا فقد أعرضت – في المبحث الرابع – عن وضع هوامش عند كل نقل ؛ لأن هذه الطريقة ستقطع متابعة القاريء للسيرة الذاتية للعَلَم الذي أتحدث عنه ؛ نتيجة الانشغال بتتبع هذه الهوامش .

وآثرت بدلاً من ذلك للعناية بعملية التوثيق العلمي أن أذكر مصادر عامة للتراجم التي أوردتها في مقدمة المبحث ، مع وضع هامش في مبتدأ الحديث عن كل بيت علمي يبين أهم المصادر التي ترجمت له .

تقسيم البحث :

هدف البحث هو تسليط الضوء على أهمية الموضوع ، وإبراز حقيقة جوانبه الثقافية المضيئة ، ولم يدر بخلد الباحث – نظراً لتشعب الموضوع وضخامة موارده ومادته – الحصر والاستقصاء ، لذا فقد تردد في اختيار كيفية مناسبة لتقسيم بحثه ؛ تبرز مقصوده ومبتغاه من هذا البحث .

كانت أمامه طريقتان ؛ الطريقة التقليدية القائمة على تقسيم البحث بحسب العناصر الثقافية المراد تناولها ، كالحياة العلمية ، وأهم العلماء ، وأهم الكتب ، والثقافات الأخرى المختلفة كثقافة الزينة ، والسقيا ، ونحو ذلك ، ومن ثمَّ عرض ماكتبه كل رحالة تحت بند كل عنصر .

إلا أن الباحث رأى أنه سيترتب على هذه الطريقة سيئتان ، أو وجهان من القصور.

الأول : أن هذه الطريقة لاتلبي هدفه الأول من البحث وهو إبراز

جماليات أدب الرحلات ، وبالتالي أهمية الرحلات الحجازية في إبراز ثقافة مكة المكرمة .

والوجه الثاني : أن هذه الطريقة لاتحقق المتعة للقاريء حيث تشبه الأعمال الببليوجرافية ، والببليوجرافيا – نسقية أو تحليلية – مهمة في التوثيق ، إلا أنها لاتملك هذه الأهمية في التذوق !

وبالتالي اتجه الباحث نحو تقسيم آخر رأى أنه سيحقق هدفه من إبراز جمال أدب الرحلات ، ومتعة القاريء ، وذلك بالاستعراض الموجز لعدد من الرحلات ؛ ليبدو وكأن القاريء يعيش مع أصحابها في مكة المكرمة ، في مختلف العصور .

تم تقسيم البحث إلى تمهيد وثلاثة مباحث ؛ تناول التمهيد خصوصية المكان وأهمية الموضوع ، في حين ركز المبحث الأول على استعراض **(نماذج للجوانب الثقافية في كتابات الرحالة الشرقيين عن مكة المكرمة)**، وركز المبحث الثاني على استعراض **(نماذج للجوانب الثقافية في كتابات الرحالة الغربيين عن مكة المكرمة)** ، وتناول المبحث الثالث **(أدب الرحلات الحجازية والأثر المتعدي لثقافة مكة المكرمة)** ، واستعرض المبحث الرابع **(نماذج للجوانب الثقافية من البيوتات العلمية بمكة المكرمة)**

ولعله من فروض الوفاء التي مافتئت لازمة من لوازم العقلاء أن أشير إلى الجهود الكريمة التي بُذِلَت في أكثر من جهة للاحتفاء باختيار

مكة المكرمة عاصمة للثقافة الإسلامية ، وأخص بالذكر الجهود التي ركزت على الجوانب الثقافية ذات الطبيعة الإثرائية عن طريق البحوث والندوات ومنها : وزارة الثقافة والإعلام ، ووزارة الحج ، وجامعة أم القرى ، ودارة الملك عبدالعزيز ، وغيرها.

وإن كان من المؤكد أن مكة المكرمة - في الحقيقة - عاصمة دائمة للثقافة الإسلامية ، فلاتحتاج إلى اختيار ، إلا أن التنبيه إلى هذا الجانب ، بأعمال علمية كبيرة، سخرت لها الكفاءات والطاقات ، وقبل ذلك حشدت لها عقول مستنيرة من علماء الأمة ومفكريها في الداخل والخارج سيكون محموداً بالنظر إلى تحريك الساحة الثقافية ، وإثراء المكتبة الإسلامية بكتابات ، ورؤى ، وتصورات، واقتراحات ، سيكون لها الأثر العلمي النافع بإذن الله ، مما يوجب توجيه الشكر للقائمين على تلك الجهود ، بارك الله في جهودهم ، ونفع بها الإسلام والمسلمين .

ولي رجاء مقرون بالشكر والدعاء – سلفاً – لكل أخ كريم ، قرأ هذا البحث، فآزرني بملحوظاته ، أو تعقباته ؛ بمايثريه ، ويحقق هدفي وهدفه منه ، وهو خدمة ثقافة مكة المكرمة، وقبل ذلك خدمة ثقافة ديننا الإسلامي العظيم ؛ تعاوناً على البر والتقوى . وبالله التوفيق ،،،،

كتبه

إبراهيم بن عبدالله السماري

ص ب ٣٠٢٤٢ الرياض ١١٤٧٧

alsmariibrahim@hotmail.com

التمهيد

(خصوصية المكان وأهمية الموضوع)

الرَّحَّالَةُ عُمْلَةٌ نادرة في كل مجتمع ؛ لأن عَمَلَـهُ يوصـف بأنـه متعـب بدنياً وذهنياً، وإنما يخفف وطأته مايتحلى به هذا الرحَّالة غالباً من الرغبة في توسيع الدائرة المعرفية لديه ولدى من يخاطبه عنـد تـسجيل أو سـرد أحداث رحلته وعرض مشاهداته وإبداء انطباعاته حيالها .

وإذا كان من المؤكد أن بعض الرحلات تكتسب خـصوصية تـضفي عليها مزيد أهمية ، فإن المؤكد كذلك أن هذه الخصوصية ترجع حيناً إلى طبيعـة الرحلـة ، وأحيانـاً إلى صـاحب الرحلـة ، وأحيانـاً إلى مكانهـا ، وأحياناً إلى زمانها ، وأحياناً إلى الظروف المحيطة بها .

ولذا نجد أن بعض هؤلاء الرحالة ذو تميز ، قد ضرب الله عـز وجـل له من توفيقه بسهم وافر في أدب الرحلات ، حيث يملك دقة متناهية في وصف الرحلة والتعريف بدقائقها ، فلايغادر صغيرة ولاكبيرة مما هو في متاحات البشر إلا سـجله وسـلط عليـه إضـاءات تكفـي لإشـباع نهـم المتلقي ، بمـا يملكـه مـن قـدرات في مجـال تـصيد تـساؤلات وتوقعـات

المهتمين بمتابعة أخبار الرحلة ، كما رزقه الله توفيقاً آخر يتمثل في أسلوبه السهل الممتنع عند عرض عناصر رحلته ، بما يملكه من أدوات التأثير اللغوية ، والترابط المنطقي بين مايعرضه من مواقف وأحداث ورؤى ، مع حرصه على كتابة الأسماء والمسميات كما ينطقها أهلها ، وغوصه كثيراً في تعليل مدلولاتها ، فتكتسب الرحلة بذلك أهمية وخصوصية تأسر القاريء في قيود الشغف بمتابعتها .

وملمح ثقافي مهم في أدب الرحلات يحسن التنبيه إليه وهو أن الحوار ركن ركين من خصائص كل رحَّالة ؛ لأن المفترض أنه إنما يحصل على كثير من المعلومات في رحلاته عن طريق الحوار مع الأشخاص الذين يلتقيهم ، فيستنطقهم ليجيب عن التساؤلات التي تثيرها مشاهداته .

ولذا فقد تنوعت موارد ثقافة الحوار عند الرحالة ، وصقلتها الدِّربةُ والتلاقح الفكري والتواصل مع الآخرين بحكمة وإقناع ، فَأثْرَت رحلاته إثراءً بيِّناً ، وزادت وهجَها تألقاً، وكان ذلك سبباً في علو درجة أدب الرحلات من حيث القيمة العلمية والتاريخية ؛ نظراً لاعتماده على تسجيل أحداث الواقع بأمانة ، وأيضاً بأيدٍ خبيرة متمكنة .

يضاف إلى ذلك أن بعض الرحلات تكتسب خصوصية ، تضفي عليها مزيد أهمية، وهذه الخصوصية ترجع حيناً إلى طبيعة الرحلة ، وأحياناً إلى صاحب الرحلة ، أو مكانها ، أو زمانها ، أو الظروف المحيطة بها .

ولتوضيح الأهمية الثقافية في أدب الرحلات الحجازية يلزمني استحضار ملامح الصورة كاملة ، فقد كانت الخلافة الإسلامية في وقت من الأوقات تمتد من حدود الصين شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً ، ومن آسيا الوسطى وجبال القوقاز إلى جنوبي الصحراء الكبرى .

وفي عصرنا الحاضر الذي تقاربت فيه البلدان ، نجد في كل قارة من قارات العالم – أي في كل أنحاء العالم – بلداً مسلماً أو أقلية مسلمة ، فللقاريء الكريم أن يتصور تنوع المواقع الجغرافية التي يمر بها الحاج حتى يصل إلى مكة المكرمة ، ومافيها من تأثيرات ثقافية يمكن أن يتأثر بها ، ومايمكن أن ينقل إليها من تلك التأثيرات ، وماتطبعه التجربة الإيمانية من أثر في نفسه ينقله في عودته إلى تلك المواقع ، انتهاء إلى بلده؟

يضاف إلى ذلك أن محطات قوافل الحج في القديم والحديث تتحول إلى مراكز ثقافية، وصروح حضارية ، يجتمع فيها أهل العلم والأدب ، ويتم تداول الفعل الثقافي فيها عن طريق المسامرات ، والكتب ، والرسائل الأخوانية ، وغير ذلك من ضروب الثقافة ؛ لأن الاجتماع في هذه المحطات وإن كان من أجل الوقوف للراحة ، إلا أنه لايتوقف عند هذا الحد ، وإنما يتعداه كثيراً إلى الفكر ، عن طريق الاتصال المباشر بالرجال الذين يلتقيهم الحاج من مختلف المشارب الفكرية والثقافية ، والاستماع إليهم ، والحديث إليهم بصدق وشفافية ووضوح وعفوية في

كثير من الأحيان ، ومن ثمَّ التأثير فيهم ، والتأثر بهم ؛ فكراً وثقافة وعادات وأعرافاً ، وربما وصل ذلك إلى حد التأثير المذهبي .

بل قبل ذلك فإن قوافل الحج ذاتها تكاد أن تكون جامعة متنقلة بالنظر إلى طبيعة أشخاصها وتنوع مشاربهم الفكرية وثقافاتهم ، فيهم الفقهاء ، والقضاة ، والمفتون ، والأدباء ، والوعاظ ، وعامة الناس بعفويتهم التي تستلفت النظر ، وهكذا ، ولاسيما في الزمن الماضي حيث كانت رحلة الحج تستغرق في كثير من الاتجاهات قرابة الشهر ، وأحياناً أكثر ؛ فكل ذلك يصنع مناخاً معرفياً ، مؤهلاً للتنامي نتيجة الاجتماع والرفقة في سير الرحلة .

ولتوضيح الصورة أكثر فأكثر أشير إلى أن الذين يقصدون الحرمين الشريفين ليسوا بالضرورة ممن يحسنون اللغة العربية ، وإنما يتكلمون لغات مختلفة ، فيها المعروف وغير المعروف ، وفيها المستعمل والمهجور ؛ وفيها الشائع والنادر ؛ فذلك أثر ثقافي لايمكن للباحث المنصف أن يتجاهله .

كما أن الرحلات الحجازية كان لها أهمية ثقافية في تسجيلها وقائع ثقافية لم تحظ بتسجيل آخر كما هي الحال في منطقة (حجر اليمامة – موقع مدينة الرياض اليوم –) التي عانى تاريخها من انقطاع في بعض فتراته ، فكان توقف بعض الرحالة في هذه المنطقة مؤكداً للحالة الثقافية والعلمية المزدهرة لهذه المنطقة في فترة تاريخية معينة ، لايوجد في أية

مصادر أخرى .

وفي ضوء هذه الحقيقة المؤكدة فإن رحلات الحج تكتسب أهميتها وخصوصيتها من خلال عدد من المظاهر فمن حيث طبيعتها تكتسب خصوصيتها من كون الرحلة إلى الديار المقدسة ذات صبغة دينية تهدف إلى إظهار العبودية لله عز وجل ، ومبعث فخر لمن قام بها ، ولذا يفرح كثيراً بصفة الحاج التي تلازمه في كثير من البلدان الإسلامية طيلة حياته بعد أداء نسكه .

ومن حيث المكان فإن مكة المكرمة هي عاصمة الإسلام وقبلة المسلمين ومهوى أفئدتهم ومحط أنظارهم ، ومجرد ذكرها يستأثر بانتباههم ويأسر تطلعاتهم وشغفهم ، ناهيك عن تفصيل أخبارها.

كما أن المسجد الحرام كان دون شك – في جميع العصور الإسلامية– جامعة فريدة ، مهوى أفئدة علماء المسلمين وطلبة العلم ، وفيه تدرس العلوم المختلفة دون قيود أو تكاليف على المتعلمين ، وإنما تزدهر الحياة العلمية فيه أو تضمحل بحسب الحالة الثقافية السائدة في كل عصر .

لقد وصل المسجد الحرام إلى مركز للفتيا المصدرة للعالم الإسلامي أجمع في وقت من الأوقات ؛ نتيجة شهرة وفضل علمائه آنذاك ، كما انتشرت كتب هؤلاء العلماء ودروسهم في الحرم في أصقاع المعمورة عن طريق طلبة العلم.

يضاف إلى ذلك تنوع الكتب المتداولة في ثقافة مكة المكرمة كما

وردت في كتب الرحلات ، ممايؤكد أهمية دراسة هذه الثقافة ومعطياتها عبر العصور المختلفة .

ومن حيث الزمان فإن موسم الحج الذي تشهده المشاعر المقدسة بمكة المكرمة هو الركن الخامس من أركان الإسلام وهو مرقى طموح كل مسلم ومنتهى أمله ؛ لأن كل مسلم لاريب أنه يتطلع إلى أن يؤدي هذا الركن العظيم ، وهو في ذات الوقت يفرح برؤية أخوانه المسلمين وهم يؤدونه ، أو حين يصفه له من رحل منهم إلى الديار المقدسة ؛ لما يثيره ذلك الوصف أو تلك المشاهدة في نفسه من بواعث الشوق والحنين والشعور بالأخوة والوُحدة الإسلامية ، التي يحققها هذا الركن العظيم الركن الخامس من أركان الإسلام وهو الحج .

فالحج صلة بين العبد وربه يحقق العبد من خلالها عبوديته لله عز وجل ، ويقوى صلته به ، فأداء الحج حينئذ اتباع نابع من محبة وشعور بالحاجة إلى رضا المعبود المحبوب ، وقدوم الحاج للحج بلباس معين يذكره بقدومه على الله عز وجل ، فهو رقي روحي وتأمل وتفكير وخضوع جسدي .

أما الرقي الروحي فبما فيه من شعور بالصلة بالله وخشيته ، بدلالة ما في الحج من مناسك تدل على مناجاة المعبود كالوقوف بعرفة والنحر وغيرها .

وأما التأمل والتفكير فبما فيه من تهليل ، وتسبيح ، وتكبير ،

وقراءة، وأذكار ، وحركات ، موجبة للخضوع ، الخ .

وأما الخضوع الجسدي ففي الحج أعمال بدنية كثيرة تشعر بالامتثال والتذلل للمولى عز وجل .

كما أن الحج يهذب نفس العبد ويزكيها من شوائب المعاصي ، ويربي روحه على حب الخير والتعاون ، بما يعود على المجتمع المسلم عامة بالخير والنفع ؛ لأنه يعوِّد المسلمين التعاون والتعارف ويزيد أواصر التآلف بينهم .

فهذه المعاني التربوية تصبغ رحلات الحج إلى مكة المكرمة بطابعها وأهميتها ؛ لأنها تؤكد هذا الالتزام وتذكر به عندما يقرأها أو يسمعها المسلم من أخوانه الحجاج ، ولاسيما أن الحج عبادة إيمانية فيها العمل القلبي والعمل الجسمي والبذل من المال الذي تؤثره النفوس وتحب جمعه لابذله .

ثم إن من أهم مقاصدها الإيمانية في المجموع تجمع المسلمين جميعاً في أوقات محددة وأمكنة معينة لإظهار الشكر لله تعالى على نعمته سبحانه بالإيمان التي هي أعلى نعمة وتيسيره سبل الطاعات لهم ، ودلالته إلى تحصيل الأخوة الإيمانية في اجتماع يتساوى فيه من يحضره إلا بحسب العمل المقرب إلى رضوان الله .

فأيام الحج الفاضلة تتحول بالنسبة لحجاج بيت الله الحرام إلى جامعة إسلامية فذة ، يقرأون في موادها تاريخ الإسلام الزاهي وأمجاده

العظيمة، وتطلعاته القادمة ، ذلك أن الحج رباط وثيق بين الماضي والحاضر والمستقبل ، يحكي مشاهد من التضحيات المخلصة والانتصارات الباهرة ، المستضيئة بنور العقيدة وصفاء الإيمان وإخلاص النية وصدق العمل ، ويحفز النفوس المسلمة نحو العمل الجاد للنهوض بأمتهم مستقبلاً .

ومما يزيد أهمية رحلات الحج أن في الحج رموزاً بارزة وأهدافاً نبيلة تستحق أن يهبها المسلم قدراً كبيراً من التأمل ، وقدراً أكبر من الاتعاظ لعمق أثرها وتأثيرها ، فالمسلم يقدُم إلى البيت الحرام من بلاد بعيدة متكبداً مشاق السفر ومتحملا نفقات مالية كثيرة وقد لايكون في سعة من المال ، ولكنه يستجيب لداعي الله في قوله سبحانه وتعالى ﴿وَأَذّن فِي النّاسِ بِالْحَجّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىَ كُلّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلّ فَجّ عَمِيقٍ لّيَشْهَدُواْ مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُواْ اسْمَ اللّهِ فِيَ أَيّامٍ مّعْلُومَاتٍ عَلَىَ مَا رَزَقَهُمْ مّن بَهِيمَةِ الأنْعَامِ فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ الْبَآئِسَ الْفَقِيرَ﴾ (١)

فإذا كانت هذه حال الحاج من الرغبة في رضوان الله والتلبس بالإخبات والتقوى فإن اقتناص فرص الخير في قلبه وتنشيط نوازع الإقبال على الله في فعله لغسل خطاياه وتنقية دنس روحه إذا تمت بدعوة حكيمة بالحسنى فإنها ستكون ميسرة وقريبة من قبول المدعو بأقل جهد من الداعي ؛ لأن الظروف تساعد على نجاحها .

---

١ - سورة الحج ، الآيتان ٢٧و٢٨ .

وإن تجسيد الحكمة من أعمال الحج في معانٍ قريبة من فهم المدعو ميدان آخر تتنفس فيه الدعوة الحكيمة نجاحاً إثر نجاح بإذن الله لما في ذلك التجسيد من معرفة بحقائق الدين وثوابت التوحيد ، التي تدني ثمار الموعظة واليقين إلى الأفهام المستقيمة .

إن وسيلة الرحلات من أهم الوسائل التي يمكن من خلال عرض وقائعها ومشاهداتها التأثير في المسلمين ، لاستجلاب وعي حقيقي ومؤثر بالمعاني النبيلة والمدلولات السامية للحج ، واستحضار أثرها العميق في حياة المسلمين ، أفراداً ومجتمعاتٍ وأمة .

وفوق ذلك فإن شخصية صاحب الرحلة قد يكون لها تأثير بليغ في الآخرين لاتحققه وسيلة أخرى فحديث الإسلام عندما يتحدث بلغته عن رحلته إلى الحج مبدياً ماعاشه من مشاعر إيمانية صافية وتطلعات روحية رائعة لاريب أنه سيؤثر في آخرين من حديثي الإسلام يفضي إلى حثهم على الترقي في الدين والتزود من خيراته علماً وعملاً .

وربما أثّر في غير المسلمين لتفاعلهم مع صاحب الرحلة ورحلته مما يغريهم بالبحث عن حقائق وخصائص هذا الدين الذي أثمر تلك المشاعر الإيمانية المتميزة وتلك التطلعات الروحية الرائدة .

كما أن رحلات العلماء وطلبة العلم بوجه خاص وسيلة مهمة من وسائل تعليم الناس فقه الحج وشرح أحكامه ومراميه لهم .

وفي الجانب الآخر نجد أن الرحلات إلى مكة المكرمة تكتسب

خصوصية متميزة لكونها العاصمة المقدسة ، التي لها منزلة خاصة عند جميع المسلمين في كل أصقاع الأرض ، فيتشوق كل مسلم إلى معرفة الرحلات إليها ، وماتسجله عنها من انطباعات ومشاعر وأحاسيس تترجم مايختزنه وجدانه من أحاسيسه ومشاعره هو ، بالإضافة إلى أن هذه الرحلات تغري الآخرين بالتعرف على سرّ تعلق المسلمين بهذه البقعة المباركة .

لقد بينت في مقدمة هذا البحث أن أدب الرحلات من فنون الآداب العالمية العريقة ، والآن يمكنني القول بقلب مطمئن إلى الصواب : إن أدب الرحلات إلى الأماكن المقدسة بخصوصه يعد من أرقى مجالات هذا الأدب ؛ لأن الرحلة إلى بيت الله الحرام في مكة المكرمة – والشأن ذاته بالنسبة للرحلة إلى المسجد النبوي في المدينة – تستأثر باهتمام شريحة كبيرة جداً من المسلمين الذين يتطلعون إلى زيارة هذه المقدسات ، فلايجدون إرواءً لظمأ أشواقهم سوى مايكتبه طائفة من إخوانهم الذين حرصوا على تدوين مشاهداتهم ومشاعرهم وانطباعاتهم وأحوالهم في هذه الديار الطاهرة .

من المؤكد أن البيت الحرام – وهو موضوع بحثنا هذا – ظل مصدر إلهام لكثير من الكتاب والمؤلفين العرب وغير العرب الذين أتيحت لهم فرصة الرحلة إلى مكة المكرمة بصفتهم مسلمين ، أو حتى بادعائهم الإسلام لإشباع رغبتهم في فهم أسرار تعلق المسلمين بهذه البقعة من

الأرض .

لقد حظيت الرحلات الحجازية المدونة بنصيب وافر من الاهتمام بسبب ماتضمنته من التجارب الروحية التي يفصح عنها كاتب الرحلة ، ولاسيما عند وصف المناسك والمشاعر المقدسة ، ويأتي تبعاً لذلك وصف الأماكن والأسواق وتقاليد الأهالي وطبائعهم وصنوف البشر الوافدين إلى هذه الأرض من كل حدب وصوب ، بمايشعر قاريء الرحلة وكأنه مع الرحالة في رحلته .

ومن المؤكد أن أهمية هذا الأدب تختلف في أهميته الثقافية وقيمته الأدبية بحسب قدرة الكاتب على تسجيل التفاصيل الدقيقة والوقائع الهامة من رحلته ؛ لأن ذلك يرتبط – دون شك – بموهبة الكاتب وإمكاناته الإبداعية والنقدية ، وقدرته على توظيف ذلك كله لمصلحة المَشَاهد التي يصنعها في سياق رحلته .

وهذا هو بالذات مولد الصعوبة في تتبع الجوانب الثقافية في أدب الرحلات الحجازية ؛ نظراً لأن بعض كتاب الرحلات لايعيرون هذا الجانب أية أهمية ، أو ربما ألحوا إليه إلماحات لاتطفيء ظمأ المثقف المتطلع إلى إبراز هذا الجانب إبرازاً إثرائياً واضحاً ، ولاتشبع حاجة الموضوع إلى البيان والتدقيق والتحقيق العلمي الصحيح ، ويتضح هذا من قراءة عدد من الرحلات التي يتضح منها أنها ، أو أغلبها سجلت تعبيراً عن الامتنان للاستضافة الرسمية في الحج ، حيث تكثر فيها

النقول التاريخية المكرورة ، وتختفي الإلماحات المفيدة للمثقف أو المؤرخ الفطن .

في حين نجد أن هناك طائفة منهم أولى الشأن الثقافي أهمية كبيرة من اهتمامات رحلته نظراً لمشاربه الفكرية ذات الطبيعة الثقافية ؛ لكونه من زمرة المثقفين ، بل ربما كان من رواد الأدب والثقافة ونقاده .

ويمكن ضرب مثال على هذا النوع من الرحالة بجلال آل أحمد الطالقاني ، صاحب كتاب (قشة في الميقات) الذي كان من رواد الأدب الفارسي ومن مثقفيه ونقاده المعروفين ومن الوسط الاجتماعي الراقي ومن الأغنياء ، لكنه آثر – كما تفصح عنه مذكرات رحلته – أن يسافر مع القوافل الشعبية الفقيرة .

ويستنتج من هذا التصرف الذي أقدم عليه كاتب الرحلة ، ومن حديث الطالقاني عن نوع الطعام والمسكن ووسائل النقل ، وطبيعة المرافقين أن كاتب الرحلة أراد أن يعيش الصورة الحقيقية لهذه الرحلة، أي معاناة رحلة الحج . [1]

(لم تقتصر مطامح آل أحمد في رحلته على الملاحظات العابرة والانطباعات العاجلة ، وإنما كان يسعى إلى التوغل في الأبعاد الخفية لما يراه من ظواهر ، ويعمل على تحليلها ؛ من أجل اكتشاف مضمراتها ،

---

١ – انظر : عبدالجبار الرفاعي ، رحلة جلال آل أحمد إلى الحج ، مكة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية ، الندوة الكبرى ، وزارة الحج ط١، ١٤٢٣هـ ص٦٧ .

ومالاتقوله من نزعات بشرية ، ومايدخل في تشكيلها من عناصر ثقافية.

إنه يحاول أن يسجل ملاحظاته من منظور باحث أنثربولوجي ، ولذلك يمكن أن تصنّف هذه المذكرات كوثيقة أنثربولوجية لدارس مهتم بالتعرف على طبائع المجتمعات الإسلامية ، وأنماط ثقافاتها، من خلال معايشته الجماعات الوافدة للحج ، من تلك المجتمعات ، والاختلاط بمن يلتقيه منهم والمبادرة بسؤاله بما يتقنه من العربية أو الإنجليزية) [1]

ومما يجدر التنويه به ماتحتويه به كثير من الرحلات الحجازية من معلومات تاريخية هامّة ، حيث إن غالب كتاب هذه الرحلات يدونون مايشاهدونه من عمارة البيت الحرام ، والحالة الدينية ، والجغرافيا السكانية والعمرانية ، والأسواق ، والمتاجر ، والمكتبات ، والكتب ، وعن العلماء أو الأدباء والمثقفين الذين التقوا بهم ، أو حتى الذين سمعوا عنهم في مكة المكرمة ، والشوارع ، وثقافة السقيا ، وثقافة الأكل، وثقافة العادات ، وغير ذلك من أنواع الثقافات .

فتصبح هذه المدونات – مع مرور الزمن – وثائق مهمة للباحثين ، والمؤرخين ، والدارسين لتاريخ مكة المكرمة وثقافتها ، في كل مجالات الحياة ؛ لأنها أصبحت من الماضي السحيق ، الذي لايمكن أن يعرف إلا من خلال كتابات من عايشوه عن قرب وتفاعلوا معه .

وقد لفت انتباهَ بعض الباحثين غلبةُ الجوانب العلمية على بعض

---

١ – عبدالجبار الرفاعي ، رحلة جلال آل أحمد إلى الحج – مصدر سابق – ص٦٨ .

الرحلات ، حتى ظن أنها ربما تفقد طبيعتها المؤسسة على تدوين المشاهدات الجغرافية ، فيقول : (اصطبغت الرحلات الحجازية التي كتبت في العهد العثماني بكثرة الاستطرادات العلمية والفقهية والأدبية، وكادت بذلك تبتعد عن موجب تسميتها تلك ؛ إذ قلت فيها التقييدات للمشاهدات والملحوظات والأوصاف المتعلقة بالمراحل في المسالك عبر الممالك في الطريق إلى البيت الحرام ، وطغت هذه الظاهرة على تآليف عدد من الرحالة المغاربة ، أمثال أبي سالم العياشي – حج عام ١٠٧٢هـ – وأبي علي اليوسي – حج عام ١١٠١هـ – وأحمد بن ناصر – حج عام ١٠٢١هـ – ومحمد الدرعي – حج عام ١١٥٢هـ – والحسين الوريتلاني – حج سنة ١١٨١هـ – ومحمد بن عثمان السنوسي – حج عام ١٢٩٩هـ) [(١)]

يضاف إلى ذلك أن بعض هذه الرحلات استخدمت بعض التقنيات الحديثة المساعدة في عملية التوثيق ، مثل التصوير بالكاميرا ، وبالرسم .

والحق والعدل أن هذا اللون من التوثيق اختص به – في بواكيره – الرحالة الأجانب ، الذين يتقنون استخدام هذه التقنيات ، وأهم من ذلك أنهم يدركون مدى أهميتها التوثيقية ، مثل جون جرفيه

---

١ – د/ علي الشنوفي ، مكة المكرمة والكعبة المشرفة في كتب الرحالة المسلمين ، المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات – بيت الحكمة – ، ط١ ، ١٩٨٩م ، ص ٩ .

كورتلمون[١]، وعبدالله (هاري سانت جون) فيلبي[٢] ، وغيرهما من هواة التصوير الفوتغرافي والرسم بالريشة.

في حين لم يتألق هذا اللون في أذهان الرحالة العرب إلا متأخراً جداً، وذلك أمر طبعي نظراً للحالة الثقافية السائدة في البلاد العربية والبلاد الغربية آنذاك .

وبذلك حقق الرحالة الغربيون أفضلية توثيقية في هذا الجانب ، برغم أن استخدام الكاميرا في بعض تلك الأوقات كان محرماً ، فكيف به في الحرمين الشريفين ؟

فمثلاً تعد الصورة التي التقطها كورتلمون للمسجد النبوي سنة ١٣٢٨هـ / ١٩١٠م (من أقدم الصور الملونة لهذا المسجد ، وتوجد هذه الوثيقة التاريخية في المتحف السينمائي روبير لينن في مدينة باريس) [٣]

---

١ – جون جرفيه كورتلمون ، رحلتي إلى مكة ، ترجمة د. محمد الحناش ، نشر مؤسسة التراث بالرياض ط١ ، ١٤٢٣هـ .

٢ – عبدالله (هاري سانت جون) فيلبي ، حاج في الجزيرة العربية ، نشر مكتبة العبيكان بالرياض ، ط١ ، ١٤٢١هـ .

٣ – جون جرفيه كورتلمون ، رحلتي إلى مكة ، ترجمة د. محمد الحناش – مصدر سابق – ص ١٦ .

المبحث الأول

(نماذج للجوانب الثقافية
في كتابات الرحالة الشرقيين عن مكة المكرمة)

يتبين من كتابات الرحالة في رحلاتهم الحجازية أنها تناولت مختلف مجالات الثقافة المعرفية ، إلى درجة لاتكاد تخطر على بال ، كالاهتمام بثقافة الديكور في مكة المكرمة ، وثقافة النظافة الشخصية لدى سكان مكة المكرمة كحديثهم عن حرص نسائها على التطيب بالعطر الفاخر ، ونحو ذلك مما قد لايوجد في كتب التأريخ ، أو حتى كتب الثقافة العامة.

وقد حرصت في هذا المبحث والمبحث التالي له على تنويع الرحلات المعروضة من حيث زمانها ؛ لتعطي فكرة صحيحة عن الثقافة المكية في أزمنة مختلفة ، ومن حيث أشخاصها ؛ لأن تعدد الأشخاص مئنة تعدد المشارب الفكرية ، وبالتالي تعدد وتنوع المعطيات الثقافية ، ومن حيث أمكنة القدوم ؛ بحكم أن البيئة التي يعيش فيها الرحال تتحكم في مشاهدات الرحالة ، وفي تفتق ذهنه عن قراءة ما يلاحظه.

وأظنني بحاجة أن أنبه إلى مايواجه قاريء الرحلات من صعوبة تحديد

تاريخها ؛ نظراً لأن كاتبها لم يحدد تاريخاً معيناً ، فلابد حينئذ من الاجتهاد لتحديد هذا التاريخ من خلال كلام كاتب الرحلة ومن قابله ، ووصف عصره .

ولنبدأ بإطلالة مجملة عن الجوانب الثقافية في رحلة محمد بن أحمد بن جبير الأندلسي (ت٦١٤هـ)، المسماة (التذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار) [١]، التي قام بها سنة ٥٧٩هـ .

فقد وصف المسجد الحرام والبيت العتيق ، والحجر الأسود ، وأبواب الحرم ، والمقام ، والمنبر ، وتحدث عن أئمة الحرم ومذاهبهم ، وعن أبواب مكة المكرمة ، وجبالها ، ومشاهدها وآثارها . [٢]

وتكلم عن عادات أهل اليمن في مكة المكرمة . [٣]

وتحدث عن عادات أهل مكة في العمرة ، وعن مكانة المرأة المكية آنذاك . [٤]

وفي رحلة ابن جبير لابد أن يستوقفنا ما استوقف الأستاذ عبدالعزيز الرفاعي من أنه كان في رحلته حريصاً على تتبع الآثار المكتوبة ، التي تسجل الأعمال العمرانية العظيمة ، فهو – مثلاً – ينقل في كتابه

---

١ – ابن جبير ، رحلة ابن جبير ، تحقيق د/ حسان حلاق ، مكة المكرمة من خلال رحلتي ابن جبير وابن بطوطة، نشر دار النهضة العربية ببيروت ، ط١ ، ١٩٩٦م .

٢ – انظر : المصدر السابق ، ص ٣٠-٥٩ .

٣ – انظر المصدر السابق ، ص ٧١ ، والصواب ماذكره الشيخ حمد الجاسر من أن الذين تحدث عنهم ابن جبير هم من السرو نسبة إلى جبال السروات ، وليسوا من اليمن .

٤ – انظر : المصدر السابق ، ص٧٤-٧٥.

ماوجده مكتوباً في الجهة التي من الغرب إلى الشمال ، أمام جدار البلاط " أمر عبدالله ، المهدي ، أمير المؤمنين – أصلحه الله – بتوسعة المسجد الحرام لحاج بيت الله وعماره في سنة سبع وستين ومائة"

وماوجده مكتوباً في وسط البلاط الذي من الجنوب إلى الشرق ، على ساريتين مقابلتين للركن الأسود ، منقوشاً فيهما : " أمر عبدالله ، محمد المهدي ، أمير المؤمنين – أصلحه الله – بإقامة هاتين الأسطوانتين ؛ علماً لطريق رسول الله ﷺ إلى الصفا ؛ ليتأسى به حاج بيت الله وعماره في سنة سبع وستين ومائة" [1]

وفي رحلة أبي عبدالله محمد بن عمر بن رُشَيد السبتي المغربي (ت ٧٢١هـ) المسماة (ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكة وطيبة) [2] ، التي قام بها سنة أربع وثمانين وستمائة من الهجرة النبوية الشريفة تضمن الجزء الخامس منها مايتعلق بالحرمين ومصر والإسكندرية عبر عدد من المحطات الثقافية .

المحطة الثقافية الأولى فيما يتعلق بثقافة مكة المكرمة تتضح لنا عندما وصل السبتي رابغ في طريقه إلى مكة المكرمة فرأى أمراً عجباً من تخلُّلِ الوحشِ الغزالِ والأرنب بين الجمال والرحال بحيث يناله الناس بأيديهم، والناس ينادون حرام حرام ، والجوارح قد سُلسِلَت خِيفةَ

---

١ – عبدالعزيز الرفاعي ، ابن جبير في الحرمين الشريفين ، نشر بنك الرياض ، جدة ١٤١٠هـ ص٢٣.

٢ – أبو عبدالله محمد بن عمر بن رُشَيد السبتي ، ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكة وطيبة ، تحقيق الدكتور محمد الحبيب ابن الخوجة ، نشردار الغرب الإسلامي ، ط١ ، ١٤٠٨هـ .

تعدي جاهلٍ يعتسفُ الجاهل ، فقال في ذلك مرافقه: تأمل ترى عجباً !، هكذا جرت عادتُنا في هذا الطريق ، يؤمنا ونحن محرمون ، يمرُّ به من الوحش ماترى ، فإذا عدنا محلين لم نجد به شيئاً ، يقول السبتي : " فلما عدنا كان كما قال ، فبان لي من معنى الآية الكريمة ﴿ ياأيُّها الَّذِيْنَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيْكُمْ وَرِمَاحُكُم لِيَعْلَمَ اللهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ ﴾ [1] مالم يمكن بغير المشاهدة " [2]

فهذه الواقعة تحدد نمطاً ثقافياً سائداً في منطقة مكة المكرمة ، وهو الالتزام بالأوامر الشرعية ، وقد وظف كاتب الرحلة هذا النمط أحسن توظيف عندما ربطه بمدلول الآية القرآنية الكريمة .

وعندما وافَوا مكة المكرمة شرفها الله تلقاهم أهلها وأطفالهم ، متعلقين بالناس ؛ ليعلموهم المناسك، وليهدوهم المسالك ، قد دُرِّبَ صبيانُهم على ذلك ، وحفظوا من الأدعية والأذكار مايَحْسُنُ هنالك ، كما تحدث عن الأذكار في الطواف عند نزول المطر، وأشار إلى مايتعلق به من أحكام فقهية ، حيث صادفهم ذلك . [3]

كما أشار إلى أنهم رأوا في ليلة التاسع عجباً ، فيما ابتدعته العامة من

---

١ – سورة المائدة ، الآية ٩٤.

٢ – أبو عبدالله محمد بن عمر بن رُشَيد السبتي ، ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكة وطيبة – مصدر سابق – ص ٧٥.

٣ – انظر : أبو عبدالله محمد بن عمر بن رُشَيد السبتي ، ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكة وطيبة – مصدر سابق – ص ٨٥.

الاستعداد والاحتفال بوَقْد الشمع ، بطول تلك الليلة ، بالجبل القائم في وسط عرفات ، المعروف عند العرب القدماء بـالإل ، موضـحاً أن هـذه الحالة من قبيح البدع ، التي يجب أن يُزجَر عنها فاعلـها ، ويـردع ، وأن الإمامَ الفقيهَ ابنَ الحاجب نبّـه علـى ذلـك ، فقـال رحمـه الله : "ومنهـا إيقــادهم لــنيران عليــه أي الجبــل ليلــة عرفــة واهتمــامهم لــذلك ، باستصحاب الشمع له من بلادهم ، واختلاط النساء بالرجال في ذلك ، صعوداً وهبوطاً ، بالشموع المشتعلة الكثيرة "

ثم يضيف السبتي : "وقـد تـزاحم المـرأةُ الجميلـةُ الرجـالَ وبيـدها الشمعةُ الموقدةُ ، كاشفةً عن وجهها ، وهذه ضلالة ، شابهوا فيهـا أهـل الشرك في مثل ذلك الموقف الجليل ، وإنما أحدثوا ذلك من قريب ، حين انقـرض أكـابر العلمـاء العـاملين ، الآمـرين بـالمعروف والنـاهين عـن المنكر"[1]

فهو بهذه الكلمات يضيء لنا محطتين ثقافيتين ، الأولى ماهو سائد في زمنه في مكة المكرمة ، مـن ثقافـة البـدع الوافـدة ، وقـد أشـار إلى بـدع أخرى، وأشار إلى اتباع عادات أفضت إلى ترك للسنة ، كمـا هـي حـال الناس في مزدلفة وتركهم الوقوف على قزح .[2]

والمحطة الثانية إشارته إلى انقراض العلماء العاملين الآمرين بالمعروف

---

١ – انظر : المصدر السابق ، ص ٨٧.

٢ – انظر : أبو عبدالله محمد بن عمر بن رُشَيد السبتي ، ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكة وطيبة – مصدر سابق – ص١٠٣.

والناهين عن المنكر في تلك الحقبة الزمنية .

ثم يصف السبتي حالة الموقف يوم عرفة ، متحسراً على تركِ سنة الجمع بين الصلاتين ، حتى صار الناس يصلون خلف إمام يتم لهم ولايحسن السنة ، ويؤخر الظهر إلى قريب العصر ، مما جعل أهل العلم يصلون فرادى أو وهم مجتمعون في رحالهم ، ثم يجيئون إلى الموقف للتشاغل بالذكر والدعاء .[1]

فهو هنا ينير لنا جزءاً من الحالة العلمية والثقافية المتدنية في زمن الرحلة ، وضعف المرجعية العلمية آنذاك .

ثم يشير السبتي إلى العلماء والفقهاء والفضلاء الذين قابلهم في مكة والمشاعر ، وطلب من غالبهم السماع والإجازة ، وذكر شيئاً من مسلسلاتهم وإجازاتهم وسماعاته وسماعاتهم ، وممن قابله الفقيه المفتي رضي الدين محمد بن أبي بكر العسقلاني المالكي وهو الذي تدور عليه الفتيا أيام الموسم ، وكانت له مواقف مع أمير مكة أبي نمي الأول ومنهم : عَلَم الدين أحمد العسقلاني ، والأديب الشاعر أمين الدين عبدالصمد الدمشقي، المعروف بابن عساكر الشافعي ، ومنهم المحدث الإمام محب الدين أبو العباس الطبري المكي الشافعي ، والإمام البسكري ، وأبو الحسن التجاني ، وعمر الصواف ، ومنهم أبو محمد عبدالرحيم بن الزجاج ، وأبو القاسم عبدالحميد بن الزجاج ،

---

١ – انظر : المصدر السابق ، ص٩٥.

البغداديان .

وذكر حادثة طريفة وقعت له مع الشيخ أبي محمد الزجاج ، فقد بان من ذلك الشيخ ضعفُ البدن والعجزُ عن القعود ، فبادر السبتيُّ إلى وضع وعاءٍ يحمل فيه كتبَه ؛ لدعمِ ركبةِ الشيخِ .

فنظر إليه نظرة المغضَب ، وأشار إليه أن استعمال الكتب في مثل هذا امتهان ، ومنعه من ذلك .(١)

وأوضح أبو عبدالله محمد العبدري في رحلته المسماة (الرحلة المغربية)(٢)، التي قام بها سنة ٦٨٨هـ شيئاً من الخرافات والبدع السائدة في ذلك العصر ، مثل الخرافات عند جبل ثور ، والياقوتة الحمراء التي وضعت لآدم موضع الكعبة .

وكان في نظرته إلى هذه الخرافات منطلقاً من روح دينية صافية لاتقبل بغير مايطابق تعاليم القرآن الكريم وماصح عن النبي ﷺ .

ولذا فإننا نرى العبدري يقرر أن كل العلوم في تقهقر واضمحلال ، في عواصم العالم الشرقية ، إلا ماكان من بعض آحاد الأفراد ، ممن لقيهم.(٣)

وظهر في رحلة العبدري اهتمام واضح بعلم التاريخ ، والسير ،

---

١ – انظر : أبو عبدالله محمد بن عمر بن رُشَيد السبتي ، ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكة وطيبة – مصدر سابق – ص ١٢٩-٢٦٢.

٢ – أبو عبدالله محمد العبدري ، الرحلة المغربية ، تحقيق محمد الفاسي ، نشر جامعة محمد الخامس.

٣ – أبو عبدالله محمد العبدري ، الرحلة المغربية ، تحقيق محمد الفاسي – مصدر سابق – ، ص ١٨٦-١٩٩.

وخصوصاً تاريخ الرجال ، واحتوت على نقول أدبية كثيرة ، نثرية وشعرية ، من إنتاج الأدباء والشعراء الذين لقيهم .[١]

ويحسن أن نسجل هنا قولاً قيل في وصف رحلة العبدري ليتضح لنا سبب حرصه على الاتجاهات الثقافية في رحلته ؛ إذ قيل : " ينبغي أن نقرر أن كلامه عن الطبيعة ومناظر السهول والجبال والبحار وهيئات المدن كما تبدو له من بعيد كلام كله إشراق وانفعال يدل على حساسية مرهفة بكل ماهو طبيعي طلق .

وهنا - والرجل على سجيته وراحة نفسه - يتكشف لنا العبدري عن جغرافي لّماح يدرك بالنظرة الواحدة مالايدركة غيره بالتأمل" [٢]

وقريباً مما سجله السبتي والعبدري عن المعطيات الثقافية في مكة المكرمة نقرؤه في رحلة معاصره قاسم بن يوسف التجيبي الأندلسي (ت ٧٣٠هـ) ، المسماة (مستفاد الرحلة والاغتراب) [٣] ، التي قام بها سنة ٦٩٦هـ ، ويهمنا فيها بعض الإشارات الثقافية التي تبرز أهم سمات ثقافة مكة في القرن السابع الهجري ، ومنها :

١ = أنه تكلم عن الحالة المذهبية السائدة ، وبعض البدع المستشرية

---

١ - انظر : المصدر السابق ، ص١١١-١٢٠.

٢ - د/حسين مؤنس ، تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس ، ط١ ، مدريد ١٣٨٦هـ ص ٥٢٣.

٣ - حمد الجاسر ، مكة المكرمة في القرن السابع الهجري كما في رحلة التجيبي الأندلسي ، العرب س١١ ع ١و٢ رجب -شعبان ١٣٩٦هـ.

آنذاك . [١]

٢ = أشار إلى محبة الناس لقراءة القرآن الكريم بالألحان ، متوقفاً عند جمال بعض أصوات القراء ، التي تكاد تخشع لحسنها الجمادات كما قال.[٢]

٣ = تحدث عن المدرسة المنصورية بمكة المكرمة ، التي أنشأها الملك المنصور عمر بن علي بن رسول (ت ٦٤٧) مؤسس الدولة الرسولية باليمن . [٣]

٤ = وصف التجيبي آثار مكة ، وظهرت غلبة العاطفة عليه عند وصفها ، حتى إنه ليصدق كلام العامة حولها دون تمحيص [٤]

وتحدث عن علماء مكة كالعماد الطبري ، الذي روى عنه صحيحي البخاري ومسلم وبعض السنن ومسند الشافعي وغيرها من كتب الحديث ، الذي يظهر أنها كانت تحظى بعناية خاصة من العلماء وطلاب العلم في تلك الحقبة التاريخية ، كما قرأ كتاب (أخبار مكة)

---

١ – انظر : حمد الجاسر ، مكة المكرمة في القرن السابع الهجري كما في رحلة التجيبي الأندلسي – مصدر سابق – ص ٥٩.

٢ – حمد الجاسر ، المصدر السابق ، ص ٦٠.

٣ – حمد الجاسر ، المصدر السابق ، ص ٦١ ، ويلحظ أن غيره من الرحالة نسب المدرسة لغير ملك الدولة الرسولية.

٤ – انظر : المصدر السابق ، ص ٦٢.

للأزرقي (ت٢٥٠هـ).[١] وقد استطرد التجيبي في ذكر من لقيهم من العلماء ، وماحصل عليه من سماعات منهم .[٢]

ونتوقف قليلاً عند رحلة ابن بطوطة المغربي (ت ٧٧٩هـ) ، المسماة: (تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار)[٣] ، التي قام بها سنة ٧٢٦هـ .

فقد تحدث عن ثقافة اللباس في مكة المكرمة ، فذكر أن أهل مكة المكرمة لهم ظرف ونظافة في الملابس ، وأكثر لباسهم البياض ، فترى ثيابهم أبداً ناصعة ساطعة ، ويستعملون الطيب كثيراً ، ويكتحلون ، ويكثرون السواك بعيدان الأراك الأخضر ، ونساء مكة فائقات الحسن ، بارعات الجمال ، ذوات صلاح وعفاف ، وهن يكثرن التطيب ، حتى إن إحداهن لتبيت طاوية ، وتشتري بقوتها طيباً ، وهن يقصدن الطواف بالبيت في ليلة كل جمعة ، فيأتين في أحسن زي ، وتغلب على الحرم رائحة طيبهن، وتذهب المرأة منهن فيبقى أثر الطيب بعد ذهابها عبقاً.[٤]

---

١ – انظر : حمد الجاسر ، مكة المكرمة في القرن السابع الهجري كما في رحلة التجيبي الأندلسي – مصدر سابق – ص ٦٦-٦٧.

٢ – انظر : المصدر السابق ، ص ٦٧-٧٠.

٣ – ابن بطوطة ، رحلة ابن بطوطة ، تحقيق د/ حسان حلاق ، مكة المكرمة من خلال رحلتي ابن جبير وابن بطوطة ، نشر دار النهضة العربية ببيروت ، ط١ ، ١٩٩٦م .

٤ – انظر : المصدر السابق ، ص ١٥٢، مع التنبيه إلى أنه منهي شرعاً عن خروج المرأة لمجامع الرجال متطيبة .

وأشار إلى مشاهداته عن بعض عادات المكيين التي تبرز ثقافتهم.[١]

كما تحدث عن قاضي مكة ، وخطيبها ، وإمام الموسم ، وعلمائها ، وصلحائها ، والمجاورين فيها ، وذكر شيئاً عن المدرسة المظفرية داخل الحرم الشريف .[٢]

وعندما نطالع كتاب (المجموع الظريف في حجة المقام الشريف) لأحمد بن يحي بن عبدالغني ، المعروف بابن الجيعان (ت ٨٨٥هـ) ، الذي سجل وقائع رحلة الملك الأشرف قايتباي[٣]، نجد صوراً ثقافية كثيرة ، منها :

أنه أشار إلى دخول قايتباي مكة المكرمة وكان في استقباله القضاة والفقهاء والتجار ، وذكر منهم قاضي القضاة البرهاني، ونائب القاضي الشافعي جمال الدين .[٤]

كما ذكر أن الملك قايتباي ألبس صنّاع العمارة بالمدرسة الشريفة فوقانيات بطرز قريب العشرة ، والشادّين الصغار توريزيات

---

١ – انظر : ابن بطوطة ، رحلة ابن بطوطة ، تحقيق د/ حسان حلاق ، مكة المكرمة من خلال رحلتي ابن جبير وابن بطوطة – مصدر سابق – ص ١٦١-١٦٧.

٢ – انظر : المصدرال سابق ، ص ١٥٣-١٥٧.

٣ – ابن الجيعان ، أحمد بن يحي بن شاكر بن عبدالغني ، المجموع الظريف في حجة المقام الشريف ، مخطوطة بدار الكتب المصرية في ١٠٠ ورقة برقم ٨٤٥ جغرافية ، وانظر : حمد الجاسر ، كتاب المجموع الظريف في حجة المقام الشريف ، العرب س١٠ ع ٩و١٠ الربيعان ١٣٩٦هـ ص٦٥٩-٦٩٦.

٤ – انظر : المصدر السابق ، ورقة ٥٦ ب و٥٧ب من المخطوطة ، وانظر : حمد الجاسر ، كتاب المجموع الظريف في حجة المقام الشريف ، – مصدر سابق – ص ٦٧٨.

سنجاب.[١]

كما أشار إلى مافعله من الخير والقربات والصدقات الجاريات بمدرسته التي أنشأها بباب السلام في مكة المكرمة .[٢]

كما ذكر أن الملك قرر بمكة مشايخ أربعة ، من كل مذهب ، ومعهم من الطلبة أربعون نفراً ، يحضرون كل يوم مجتمعين ، وأيام الدروس يجتمع كل شيخ مع طلبة مذهبه ، ويدرس العلم .

وأشار إلى أنه جعلهم من أهل مكة ، وقرر بالرباط الخلاوي الآفاقية والغرباء ، وجعل عليهم شيخاً، وقرر لهم خبزاً في كل يوم .[٣]

ففي هذه المقتطفات الثقافية التي تناولها ابن الجيعان يمكننا أن نرى ضوءاً ساطعاً عن الحالة التعليمية في مكة المكرمة في الحقبة الزمنية التي تتحدث عنها الرحلة ، وعن طريقة التدريس آنذاك ، وعن تشجيع الملوك للعلم والعلماء ، وإنشاء الأربطة لإيجاد موارد ثابتة ومتجددة للصرف على حلق العلم وطلابها.

وينعكس انتشار البدع وطغيانها في أدب الرحلات ، فيما نجده في

---

١ - انظر : ابن الجيعان ، المجموع الظريف في حجة المقام الشريف ، - مصدر سابق - ورقة ٦٠ من المخطوطة، وانظر : حمد الجاسر ، كتاب المجموع الظريف في حجة المقام الشريف ، - مصدر سابق - ص ٦٧٩. والفوقانيات والتوريزيات أنواع من الأقمشة الملبوسة .

٢ - انظر : المصدر السابق - ورقة ٦٧ من المخطوطة ، وانظر : حمد الجاسر ، كتاب المجموع الظريف في حجة المقام الشريف ، - مصدر سابق - ص ٦٧٩.

٣ - انظر : المصدر السابق - ورقة ٦٧ ب و٦٨ من المخطوطة، وانظر : حمد الجاسر ، كتاب المجموع الظريف في حجة المقام الشريف ، - مصدر سابق - ص ٦٨١.

رحلة محمد بن أحمد القيسي ، الشهير بالسِّراج ، الملقب ابن مليح ، المسماة (أنس الساري والسارب من أقطار المغارب إلى منتهى الآمال والمآرب سيد الأعاجم والأعارب) ، الذي حج سنة ١٠٤٠هـ ، فهي ابتداء من اسمها إلى تفصيلاتها ذات نزعة بدعية واضحة . (١)

ونجد الصورة الثقافية لذلك العصر واضحة في رحلة أوليا جلبي(٢)، دميرجي ، أوليا جلبي بن درويش محمد ظلي، الذي حج عام ١٠٨٢هـ (١٦٧١م) ، حيث ذكر أوصاف مدارس مكة ، وقرر أن في الحرم حين رحلته أربعين مدرسة ، وصفها بأنها عظيمة ، ومنها : مدرسة باب السلام ، ومدرسة السلطان قايتباي، والمدارس الأربع من مآثر السلطان سليمان خان . (٣)

كما تحدث عن العيون والأسبلة والعمارات الخيرية، وحمامات مكة(٤) . ووصف نساء مكة ، وأطنب كثيراً في الحديث عن جمالهن ، ولطفهن، وملابسهن . (٥)

ووصف كتاتيب الصبيان ، ودور القرآن ، ودار الحديث في مكة التي

---

١ - ابن مليح ، أنس الساري والسارب من أقطار المغارب إلى منتهى الآمال والمآرب سيد الأعاجم والأعارب ، تحقيق محمد الفاسي ، نشر وزارة الثقافة والتعليم بالمغرب ، فاس ١٣٨٨هـ .

٢ - أوليا جلبي ، الرحلة الحجازية ، ترجمها وقدم لها د/الصفصافي أحمد المرسي ، نشر دار الآفاق العربية، ١٩٩٩م

٣ - انظر : المصدر السابق ، ص ٢٦٥-٢٦٧ .

٤ - انظر : المصدر السابق ، ص ٢٦٩-٢٧٤ .

٥ - انظر : المصدر السابق ، ص ٢٧٧.

ذكر أنها في أربعين مكاناً بمكة تعقد فيها الدروس .[١]

ونجد ملامح أخرى عن الثقافة العامة السائدة في مكة المكرمة من خلال رحلة عبدالغني إسماعيل النابلسي (ت ١١٤٣هـ) ، المسماة (الحقيقة والمجاز في الرحلة إلى بلاد الشام ومصر والحجاز) ، التي قام بها سنة ١١٠٥هـ ، حيث تحدث عن المدارس في الحرم المكي الشريف ، ومافيها من كتب موقوفة ، وماآلت إليه في عصر كاتب الرحلة ، كما تحدث عن عدد من العلماء والفقهاء الذين أدركهم ، وأثنى على علمهم، وإن كان قد أكثر من الحديث عن المزارات والقبور ، مما يدل على تدني الحالة الثقافية في مكة المكرمة آنذاك .[٢]

وعندما نطالع رحلة الوزير الشرقي الإسحاقي ، التي قام بها عام ١١٤٣هـ[٣] ، فإننا سنجد عدداً من الدلالات الثقافية ، التي يمكن تبين ملامحها في النقاط الرئيسة التالية :

١ = " أنه كان في مصاحبتها وفد يتكون من بعض العلماء والموظفين الذين وثق ملك المغرب في علمهم وأخلاقهم وحصافة عقولهم ".[٤]

---

١ – انظر : أوليا جلبي ، الرحلة الحجازية – مصدر سابق – ص ٢٧٨-٢٧٩ .

٢ – انظر : عبدالغني إسماعيل النابلسي ، الحقيقة والمجاز في الرحلة إلى بلاد الشام ومصر والحجاز ، إعداد أحمد هريدي ، نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٦م ، ص ٤٥٠-٤٥٢ .

٣ – حمد الجاسر ، رحلة الوزير الشرقي الإسحاقي إلى الحجاز ، العرب س٢٠ ع ٩و١٠ الربيعان ١٤٠٦هـ.

٤ – حمد الجاسر ، رحلة الوزير الشرقي الإسحاقي إلى الحجاز ، مصدر سابق – ، تعليقات الأستاذ محمد بن عبدالعزيز الدباغ محافظ خزانة جامعة القرويين في مدينة فاس ، ص٦٥٢ .

٢ = دلالتها على " ماكان للمغاربة من العناية بمختلف الفنون والعلوم ، ومن التشوق إلى الاطلاع على أحوال أخوانهم المسلمين ، وتتبع أخبارهم ، وعاداتهم ، وتسجيلها تسجيلاً يفيد الذين يرغبون في التوجه للحج ، سواء من الناحية الجغرافية ، أو التاريخية، أو الأدبية ، أو العلمية ، أو غير ذلك من مختلف الأحوال الثقافية المفيدة " [١]

ومن المؤكد أن هذا الفعل الثقافي المهم كان له أثر معرفي في جانبي التأثر والتأثير معاً ، فوق دلالته على تنوع وتعدد الفنون الثقافية في ذلك العصر .

٣ = " برع الإسحاقي في تدوين مختلف المراحل ، وأبدى عناية فائقة بكثير من الدقائق العلمية والأدبية ، وأكثر من نقل الأشعار ، ومن نقل النصوص العامة ، المتعلقة بوصف الأقاليم ، أو بوصف بعض المزارات، مما يدل على أن الكتاب كان يجمع بين الطريف والتليد " [٢]

وأنه لم يترك سلباً أو إيجاباً إلا نقله بأمانة واضحة ، وإن كان الأولى بيان أوجه السلبية في كل فعل ثقافي سالب ؛ لتجنب آثاره الضارة .

٤ = الإسحاقي من خلال رحلته كان " يدعو إلى الفهم والتأمل وسعة الخاطر مع الاعتزاز بالكرامة النفسية ، والافتخار بالهمة الذاتية ،

---

١ – حمد الجاسر ، المصدر السابق ، تعليقات الأستاذ محمد بن عبدالعزيز الدباغ محافظ خزانة جامعة القرويين في مدينة فاس ، ص٦٥٢.

٢ – حمد الجاسر ، المصدر السابق ، تعليقات الأستاذ محمد بن عبدالعزيز الدباغ محافظ خزانة جامعة القرويين في مدينة فاس ، ص٦٥٣.

فليس هناك مايفسد العلم مثل الحفظ الآلي ، الذي لايكون معه تدبر، ولاقدرة على المناقشة والمعارضة ، وحضور البديهة " (١)

وفي هذا دلالة أكيدة على نمط البيئة الثقافية السائدة في عصره ، وتحسره على هذا النمط، ودعوته إلى تعديله .

٥ = " الإسحاقي كان كثير الاهتمام بالشؤون الثقافية ، وكانت له عناية بذكر الأشعار ، وتدوين بعض الأخبار المتصلة بشؤون الفكر ، سواء أكانت مرتبطة بالإطار الفقهي ، أو بالإطار التاريخي ، أو بالإطار الاجتماعي " (٢)

٦ = " لاتستطيع إشارة عابرة أن تحدد جميع ماكان يثير اهتمام الوزير الإسحاقي أثناء رحلته ، إلا أن الطابع العلمي ، والتاريخي ، والتربوي ، لايمكن إهماله ؛ ذلك أن الإسحاقي كان يجد لذة في الإشارة إلى ذلك ، ومتعة في التعليق على مايرتبط بهذه الاتجاهات " (٣)

٧ = في رحلة الوزير الإسحاقي إشارات واضحة إلى جوانب علمية مهمة ، كانت سائدة بين علماء عصر رحلته بعامة ، وبين علماء مكة

---

١ – حمد الجاسر ، رحلة الوزير الشرقي الإسحاقي إلى الحجاز – مصدر سابق – ، تعليقات الأستاذ محمد بن عبدالعزيز الدباغ محافظ خزانة جامعة القرويين في مدينة فاس ، ص٦٥٨.

٢ – حمد الجاسر ، المصدر السابق ، تعليقات الأستاذ محمد بن عبدالعزيز الدباغ محافظ خزانة جامعة القرويين في مدينة فاس ، ص٦٥٣.

٣ – حمد الجاسر ، المصدر السابق ، تعليقات الأستاذ محمد بن عبدالعزيز الدباغ محافظ خزانة جامعة القرويين في مدينة فاس ، ص٦٧١.

المكرمة بخاصة ، كإشارته إلى علم الأثبات[1]، وعنايته الفائقة به ، ومن ذلك إشارته إلى أن مفتي الحنفية كتب لـه سنده المتصل عن شيوخه ، وشيوخ شيوخه إلى أبي قابوس مولى عبدالله بن عمرو بن العاص ، عن عبدالله بن عمرو ، عن النبي ﷺ ، مما يؤكد عناية العلماء بهذا الفن في عصر كاتب الرحلة .[2]

٨ = عندما نتوغل في قراءة ماكتبه الإسحاقي ، وفي تحليل أبعاده سنجد أنه جمع بين روح الأديب وعقل العالم ، يظهر ذلك من أسلوبه الساحر في تدوين قصة ذلك الرجل ، الذي أراد أن يسترزق من الوفد المغربي بالشعر .[3]

٩ = في مكة المكرمة اتصل الوزير الإسحاقي بعدد من العلماء والفضلاء ، من المالكية والحنفية والشافعية والحنابلة ، ممايدل على تنوع المشارب الفقهية ، ونشاط الحركة الفكرية ؛ نتيجة تعدد الحلقات العلمية

---

١ – الأثبات : جمع ثَبَت – بفتح أوله وثانيه – والثبت في اللغة كما عرفه الزبيدي في تاج العروس٥٣٤/١ (هو الفهرس الذي يجمع فيه المحدث مروياته وأشياخه) وفي الاصطلاح هو ماعرفه به الإمام ابن حزم الأندلسي – الفِصَل في الملل والأهواء والنحل ٢٢١/٢– بقوله : (نقل الثقة عن الثقة حتى يبلغ به النبي ﷺ مع الاتصال يخبر كل واحد باسم الذي أخبره ونسبه وكلهم معروف الحال والعين والعدالة والزمان والمكان) ، غير أن هذا العلم برغم أهميته الثقافية المتميزة في حياة الأفراد بل الأمة بأسرها ؛ فإنه يعد من أصعب العلوم ، ولذا كان العارفون فيه قليل والمبدعون له أقل ؛ لما يحتاجه من قدرات التتبع والفهم وتمييز الأحكام والأشخاص ، ولصعوبة تبعاته وتنوع مجالاته.

٢ – انظر : حمد الجاسر ، رحلة الوزير الشرقي الإسحاقي إلى الحجاز ، – مصدر سابق – ، ص٦٧٥.

٣ – انظر القصة كاملة : المصدر السابق ، تعليقات الأستاذ محمد بن عبدالعزيز الدباغ محافظ خزانة جامعة القرويين في مدينة فاس ، ص٦٥٩.

في الحرم الشريف آنذاك .

ومن لقيه وأظهر فضله الشيخ محمد الطبري شيخ المقام الحنبلي ، والشيخ تاج الدين مفتي الحنفية ، وأخذ عنه بعض المسلسلات ، والشيخ عمر البار الحسيني ، والحافظ أبو عبدالله محمد بن أحمد بن عقيلة المكي ، الذي أشار إلى عدد من تآليفه ، وذكر أنه نال منه الإجازة في رواية مسلسلات .[1]

١٠ = تحدث الوزير الإسحاقي عن المشاعر – عرفات ومنى ومزدلفة– وعن الأحكام المتعلقة بها ، وعن الأحاديث الواردة فيها ، ونقل أقوال العلماء في مواضعها ومسمياتها، ووقت الصلاة فيها ، وأقوال العلماء في موقف عرفات ، والجمرات ، وأسماء مكة ، وماورد في تاريخها ، والكعبة وماقيل فيها .[2]

١١ = غشيت الرحلة سحابة التعابير الأدبية الجميلة ، التي كانت تظلل السائر في مراحلها ، وحسبي أن أضرب مثالين مماله علاقة بالجوانب الثقافية لمكة المكرمة .

المثال الأول : عندما تحدث عن ثقافة الحوار السائدة في عصره ، التي

---

١ – انظر : حمد الجاسر ، رحلة الوزير الشرقي الإسحاقي إلى الحجاز ، مصدر سابق ، تعليقات الأستاذ محمد بن عبدالعزيز الدباغ محافظ خزانة جامعة القرويين في مدينة فاس ، ص٦٧٣–٦٧٥ ، وانظر فيمن لقيهم الوزير الإسحاقي بمكة : حمد الجاسر ، رحلة الوزير الشرقي الإسحاقي إلى الحجاز ، العرب س٢٠ ع ٧و٨ ، محرم وصفر١٤٠٦هـ ، ص٥٢٨–٥٣٧.

٢ – انظر : المصدر السابق ، ص ١٠٨–١١٠.

لاتقبل التسليم للطرف الآخر مهما كان الحق ، حيث كتب في رحلته : " سلطان مكة السلطان عبدالله - أصلحه الله - ، وهو الذي حجز ابني أميري الحج المصري والشامي ، في أيهما يقف أولاً ، وأيهما لاينفر أولاً، حتى كادت عِياب الود بينهما تصفر ، حتى توافت سماسرة الفتنة، من الفريقين ، وسلم الله ذلك الجمع السالم من التغيير، والتكسير" (١)

والمثال الثاني : عندما تحدث عن ثقافة التعامل مع إحرام الكعبة بالتشمير ، فكتب عن ذلك يقول : "شمرت أستار الكعبة إلى نحو قامة ونصف القامة من الجدار ، من الجوانب الأربعة ، ويسمون ذلك إحراماً لها ، فيقولون : أحرمت الكعبة ، وبهذا جرت العادة دائماً في أيام الحج، ولاتفتح من حين إحرامها إلا بعد الوقفة ، فكان ذلك التشمير إيذاناً بالتشمير للسفر ، وإيذاناً بقرب وداعها ، لاجعله الله آخر وداع " (٢)

١٢ = في رحلة الوزير الإسحاقي عدد من اللطائف المتعلقة بالجوانب الثقافية السائدة في عصره ، وحسبي أن أورد مثالين منها .

المثال الأول : عندما تحدث عن العراك على موارد الماء بالعصي والسيوف ، حتى إنه رأى طفلاً صغيراً يتلوى من العطش ، فأخرج دينار ذهب ليشتري له به ماء فلم يجده ، ثم ذهب إلى أمير الحج المصري

---

١ - حمد الجاسر ، رحلة الوزير الشرقي الإسحاقي إلى الحجاز ، مصدر سابق ، ص ١١١.

٢ - المصدر السابق ، ص١١٣.

فوجده يسقي إبله ، وهو يعرفه ، وطلب منه الماء للطفل فلم يجبه ، وتعجب من هذه المفارقة ، أن يقدم سقي الإبل على إغاثة الإنسان ، ثم تحدث عن ثقافة هذه الطائفة بأسلوب ماتع . [١]

المثال الثاني : عند حديثه عن الذين يتساهلون في فريضة الصلاة ، والوضوء ؛ بحجة السفر ، وعن الذين يسافرون إلى الحج بقصد الخدمة والاتجار فحسب ، حتى تحول الحج عندهم إلى صفقة بأجرة معلومة ، ثم استطرد في ذم هذه الطائفة وبيان حرمانها من الثقافة الدينية الصحيحة . [٢]

وفي جانب ثقافي آخر نجد أن محمد صادق باشا (ت ١٩٠٢م) في رحلته المسماة (الرحلات الحجازية)، التي قام بها عام ١٢٩٧هـ [٣]، أشار إلى أن وراء زمزم قبتين إحداهما محل للمؤقت ، والأخرى خزانة للكتب [٤]، كما أشار إلى العملات المستخدمة في مكة المكرمة [٥]، والخدمات الطبية المقدمة لتثقيف الحجاج [٦]، كما تحدث عن أدعياء الطب من الأعراب وشيوع ثقافتهم الدوائية التي سببت كثيراً من

---

١ – انظر : حمد الجاسر ، رحلة الوزير الشرقي الإسحاقي إلى الحجاز ، العرب س٢٠ ع ٣و٤ ، رمضان وشوال ١٤٠٥هـ ، ص ٢٦٦.

٢ – انظر : المصدر السابق ، ص ٢٦٧.

٣ – محمد صادق باشا ، الرحلات الحجازية ، إعداد محمد همام فكري ، دار بدر للنشر.

٤ – انظر : المصدر السابق ، ص١٠٦ .

٥ – انظر : المصدر السابق ، ص١٠٧.

٦ – انظر : المصدر السابق ، ص١١٢.

المشكلات والمآسي ، بسبب التحايل وادعاء التطبيب من أجل الارتزاق.[١]

ووصف الثقافة العمرانية في زمن رحلته ، من حيث طراز أبنية مكة المكرمة ، ودكاكينها ،[٢] كما وصف عادات الزواج فيها [٣]، ووصف عادات أهلها بعد انتهاء موسم الحج ، وسجل بعض غرائب عاداتهم.[٤]

وفي رحلة محمد بن عثمان السنوسي (ت ١٣١٨هـ) المسماة (الرحلة الحجازية) [٥]، التي قام بها عام ١٢٩٩هـ نجد إضاءات واضحة حول الجوانب الثقافية ، حيث عُنِيَ كاتب الرحلة بما يجري في مكة من نشاط علمي وثقافي ، واستوقفه طويلاً تشابه طريقة التدريس في الحرم المكي مع طريقة التدريس في تونس ، من حيث إلقاء المسألة ، ثم تطبيقها على الكتاب .[٦]

كما نبه السنوسي إلى الثقافة اللغوية عند أهل مكة ، ذاكراً أن شجون الحديث تدعوه إلى ذكر ماراًى عليه علماء الحجاز من عنايتهم بعدة

---

١ - انظر : المصدر السابق ، ص١١٦-١١٧.

٢ - المصدر السابق ، ص ١٧٨.

٣ - انظر : المصدر السابق ، ص ١٨٠.

٤ - انظر : محمد صادق باشا ، الرحلات الحجازية - مصدر سابق - ص٢٠١-٢٠٣.

٥ - محمد بن عثمان السنوسي ، الرحلة الحجازية ، تحقيق علي الشنوفي ، الشركة التونسية للتوزيع ، ط١ ، ١٤٠١هـ.

٦ - المصدر السابق ، ص١٧٨.

لغات ، " أكثرها عندهم اللسان التركي، الذي هو لسان الدولة العلية، واللسان الفارسي ؛ لكمال امتزاجه باللسان التركي ، واللسان الهندي ؛ لكثرة الوافدين من الهند، واللسان الحبشي ، ولسان أهل جاوة ، وهاته الألسن زيادة على اللسان العربي الأصلي في جزيرة العرب" (١)

وتعجب من أن العلماء في الحجاز " يقرئون العلوم الدينية والآلية احتساباً ، وليس لواحد منهم معاش عن ذلك من أموال بيت المسلمين، ولا من إدارة الأوقاف ، بحيث إنه لاجراية على التدريس ، ولا للمدارس أصلاً مع أن صنف العلماء لامحالة مستحق من بيت المال"(٢)

كما تناول في رحلته الثقافة الطبية في الحجاز ، فتحدث عن الحجز الصحي ، واستفاض في الحديث عن مسألة انتقال العدوى ، وعن ثقافة الطبيب ، عند تناوله قضية التعجيل بحياة المريض ، وإهانة المرضى .(٣)

وفي رحلة محمد بن صالح الجودي القيرواني (ت ١٣٦٥هـ) ، المسماة (رحلة التميمي التونسي إلى الحج) (٤) نجد توضيحاً أكثر وبياناً أوفى عن تلك الحالة الثقافية ، حيث ذكر كثيراً من المواضع والآثار في مكة المكرمة ، وأشار إلى تنفيذ حد قطع يد السارق في سارقين ، وحد

١ – محمد بن عثمان السنوسي ، الرحلة الحجازية ، مصدر سابق ، ص٢٥٧.

٢ – المصدر السابق ، ص٢٢٣.

٣ – انظر : المصدر السابق ، ص٢٧٦.

٤ – حمد الجاسر ، رحلة التميمي التونسي إلى الحج ، العرب س١٦ ع ٣و٤ ، رمضان وشوال ١٤٠١هـ، وعدد ٧و٨ محرم وصفر ١٤٠٢هـ.

القتل في قاتل .[١]

وأشار بصراحة إلى ما اتصف به ذلك العصر في العالم الإسلامي من جمود فكري ، وهيمنة للبدع والخرافات على كثير من عقول المنتسبين للعلم في البلاد الإسلامية ، ومنها المدينتان الكريمتان مكة المكرمة والمدينة .[٢]

ونجد أن إبراهيم رفعت باشا قد سجل انطباعاته عن جوانب ثقافية في مكة من خلال رحلاته الأربع في الأعوام ١٣١٨، ١٣٢٠، ١٣٢١، ١٣٢٥هـ، المسماة (مرآة الحرمين أو الرحلات الحجازية) [٣]، لافتاً النظر إلى بعض عادات المكيين بعد موسم الحج .[٤] كما تحدث عن آثار مكة المكرمة ومساجدها القديمة ، وعن أمرائها منذ فتحها إلى زمن الرحلة .[٥]

ولرحلة محمد لبيب البتنوني (ت ١٣٥٧هـ) ، المسماة (الرحلة الحجازية) [٦] ، التي قام بها برفقة عباس حلمي باشا خديوي مصر سنة ١٣٢٧هـ أهمية ثقافية ؛ لكثرة ماتناول فيها من جوانب ثقافية

---

١ – انظر : حمد الجاسر ، رحلة التميمي التونسي إلى الحج ، مصدر سابق، ص ٢٥٤-٢٥٧.

٢ – انظر : المصدر السابق ، ص ٥٦٠.

٣ – إبراهيم رفعت باشا ، مرآة الحرمين أو الرحلات الحجازية والحج ومشاعره الدينية ، دار الكتب المصرية ، ط١ القاهرة ، ١٣٤٤هـ.

٤ – المصدر السابق ، ص٦٣.

٥ – انظر : المصدر السابق ، ص٣٢٥-٣٥٦.

٦ – محمد لبيب البتنوني ، الرحلة الحجازية ، مكتبة الثقافة الدينية بمصر ، ١٤١٥هـ .

متنوعة ، فقد تناولت رحلته الحديث عن عوائل مكة ، ولغتهم [١]، والتلغراف والبريد ، وحمامات مكة [٢]، وتحدث عن مطبعة مكة ، وجرائدها ، ومكتباتها ، ومدارسها ، وطريقة التدريس في الحرم ، والنقود المستخدمة آنذاك . [٣]

كما تحدث عن شيخ الحرم ، وأئمته ، وخطبائه ، والآثار في مكة.[٤]

ورحلة الشيخ محمد رشيد رضا (ت ١٣٥٤هـ) ، المسماة (رحلة الحجاز) [٥]، التي قام بها سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة وألف من الهجرة النبوية الشريفة يتبين منها أن الشيخ ومن أجل الاستعداد لسفر الحج أشغل نفسه بتأليف رسالة في المناسك يبين فيها أحكامه وحِكَمَه بعبارة سهلة مأخوذة مما صح في السنة ليحملها معه هدية للحجاج الذين يصحبهم ويلقاهم فجاءت في أكثر من كراستين إلا أن الوقت ضاق على تصحيحها وطبع كمية كبيرة منها فاكتفى بحمل مئات منها .

كما تحدث عن بعض الفضلاء من الفقهاء والأدباء الذين صحبهم في رحلته ووصف مجالسه معهم ، كما وصف أصحاب الطرق البدعية

---

١ – انظر : محمد لبيب البتنوني ، الرحلة الحجازية ، مصدر سابق ، ص ١٢١-١٢٣.

٢ – انظر : المصدر السابق ، ص ١٣١-١٣٢.

٣ – انظر : المصدر السابق ، ص ١٣٢-١٣٥.

٤ – انظر : المصدر السابق – ص ١٦٢-١٧٦.

٥ – محمد رشيد رضا ، رحلات الإمام محمد رشيد رضا – الرحلة الحجازية ، جمع د/يوسف إيبش ، نشر المؤسسة العربية للدراسات والنشر ببيروت، ط٢ ، ١٩٧٩م .

في الذكر والغناء والذين ينادون بعض الأموات من الأولياء ومن هؤلاء أحد أهل الطريق المتصنعين الذين يراءون الناس بلحاهم وثيابهم وحركاتهم وأصواتهم فتلطف في وعظه وإقناعه بترك ذلك الصياح ولكنه أقلَّ منه ولم يتركه البتة .[١]

وأشار إلى الشيخ محمد نصيف والفضلاء الذين قابلهم ، ثم دوَّن في سجلات رحلته كلاماً أدبياً وحكماً بليغة في بيان أسسِ العلاقة بين الناس ، وأهمية التمسك بالحق على مايصيب المتمسكَ به من الأذى ، وفضلِ الاتباع على الابتداع ، والأخذ من الحضارات الوافدة .[٢]

ودوَّن كلماتٍ جميلةً عن الحالة الروحية عند أداء المناسك والمعاني الإيمانية والتربوية والآثارِ البدنيةِ للحج ، وعن حِكَمِ الطواف والسعي ، وعن بعض الأحكام الفقهية المهمة ، مما يدل على سعة علم الرجل وفقهِه وقوةِ بيانِه .

فكان مما قاله : فلما عادوا - أي المشيعين له - من جدة ، وولى النهار بأنسه وبهائه ، وأقبل الليل بوحشته وظلماته هدأت المشاعر وقرت النواظر وخشعت السرائر وتزاحمت الخواطر ، فكان الغالبُ منها على الفكر والقلب مايثيره تأثير الزمان والمكان وزيِّ الإحرام في النفس، فأما الزمان فشهرُ ذي الحجةِ المحرم ، وأما المكانُ فهوالطريقُ إلى

---

١ - انظر : محمد رشيد رضا ، رحلات الإمام محمد رشيد رضا ، مصدر سابق ، ص ١٠٦-١١٢ .

٢ - انظر : المصدر السابق ، ص ١١٩-١٢٠ ، وص ٢١٠ .

بيتِ اللهِ الحرام ، وأما زِيُّ الإحرامِ فهو الذي كان يتزيّا به إبراهيمُ خليلُ الله وإسماعيلُ ذبيح الله ومحمدٌ خاتَمُ رسلِ الله .

ثم يمضي في وصف حالته البدنية والروحية ليقرر بعد ذلك قائلاً : تلك التلبيةُ تملأ قلبَ متدبِّرِها إيماناً وتوحيداً وتُجَرِّدُهُ من الحظوظ والأهواء تجريدا وتُعِدُّهُ لزيارة بيت الله والطواف وهو في أحسن حال وأتم استعداد .

وهو يكرر هذه المعاني والتأملات في كل موضع من مواضع أداء نسكه في بيانٍ بديع وحِكَمٍ بليغة مؤثرة تجعل الإنسان كما يقول يدخل الحرم المقدس طاهر القلب والبدن من الحدث والدنس . [١]

مبرزاً أهميةَ تعظيمِ الرب سبحانه وتعالى في أعمال المناسك ولافتاً النظر إلى فائدةِ وجود المشاعرالمقدسة لتحقيق هذا التعظيم منبهاً إلى السنن الشرعية التي صحت عن النبي ﷺ في كل موضع ولاسيما في التلبية والطواف والسعي حتى يقول : فمن سعى بين الصفا والمروة عالماً بما ذكرتُ متذكراً معتبراً به فإنه يشعر في قلبه بنماء الإيمان بالله وبرسل الله ويفهم سر قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الصفا والمروةَ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ﴾ [٢].

ثم تحدث عن ثقافة السكان في التعامل مع نقص المياه مشيراً إلى مصنع الثلج المتعطل وتجميد الهنودِ الماءَ في قوالبَ من الزنك لبيعها على

---

١ – انظر : محمد رشيد رضا ، رحلات الإمام محمد رشيد رضا – الرحلة الحجازية –مصدر سابق – ص ١٣٠– ١٣٢ .

٢ – سورة البقرة ، الآية ١٥٨.

الحجاج بأثمان عالية ، لينقل الحديث في تدوين رحلته بعد ذلك إلى الجوانب الأدبية متحدثاً عن أيام منى ولياليها مبرزاً نصوصَ الشرع والأحكامَ الفقهيةَ المتعلقةَ بها أولاً ثم أقوال الشعراء فيها ثانياً مع توسع في المدلولات اللغوية ومعانيها منبهاً إلى أن أيام منى في الإسلام من أطيب أيام الحياة لما فيها من الجمع بين اللذات الروحية والبدنية والاجتماعية .[١]

وأعلن استياءه من ظاهرة التسول التي تدل على ثقافة متدنية .[٢]

ومن منطلق آخر أبرزت رحلة سعد بن أحمد الربيعة ، المسماة (رحلة الحاج من بلد الزبير بن العوام إلى البلد الحرام)[٣]، التي قام بها سنة ١٣٤٥هـ إضاءات ثقافية في زمنها ؛ حيث كتبها بأسلوب أدبي رائع ولاسيما حديثه عن طبيعة انفعالاته ، بل وعن انفعالات الشرقيين عموماً ، ولم يخل حديثه من الدعابة المحببة كوصفه تكالب القوم على القهوة ومامعها بأنه مثل تداعي الأمم الاستعمارية على مواطن الضعفاء ![٤]

---

١ – انظر : محمد رشيد رضا ، رحلات الإمام محمد رشيد رضا – الرحلة الحجازية –مصدر سابق – ص ٢٠٦-٢٠٧ .

٢ – انظر : المصدر السابق ، ص ١٣٠-١٣٢ .

٣ – سعد بن أحمد الربيعة ، رحلة الحاج من بلد الزبير بن العوام إلى البلد الحرام ، إعداد : سعود بن عبدالعزيز الربيعة ، نشر دارة الملك عبدالعزيز بالرياض عام ١٤٢٤هـ .

٤ – انظر : سعد بن أحمد الربيعة ، رحلة الحاج من بلد الزبير بن العوام إلى البلد الحرام ، مصدر سابق ، ص٢٠-٢١.

وبرزت ثقافة المؤلف الجغرافية من استعانته بأدوات علمية لقياس درجة الحرارة [1]، ومن خلال وصف ما رآه من جبال وأودية ورياح وأمطار وغيرها وصفاً دقيقاً ومؤثراً، كما هو واضح من وصفه مواطن الجمال التي تخلب الألباب في الدهناء التي دخلوها من معبر الخريمة، وصراحته في تلبية رغبته في التمرغ على رمالها الذهبية والتلال المكسوة بالكلأ النظير، وقضاء لبانته منها، ومن وصفه جريان رمال النفود على الأرض جريان الماء في النهر. [2]

وفي وصفه لمناسك الحج ومشاعره أوضح ماكانت عليه الحال من الزحام والضنك الشديد والخوف من الإبل العابرة وشدة الحر وهجمة البعوض والروائح الكريهة المنبعثة من اللحوم الملقاة هنا وهناك وجيف الكلاب والهررة، مما يوحي بطبيعة الثقافة السائدة آنذاك. [3]

وكان أشد ما آلمه وقطع قلبه أسى وحسرة وأبدع في وصفه أيما إبداع، وهو مما يتعلق بثقافة الناس منظر الخلائق التي لاتعد ولاتحصى على تباين صورهم وأجناسهم لاترى منهم واحداً عليه سيماء الخشوع والرهبة وهم يؤدون مناسكهم، بل كلهم كأنهم في أشغال خصوصية، والكل منهم يتهالك على قضاء شغله ويتذرع لقضائه بكل الطرق حسنها وقبيحها، فترى القوي يدفع الضعفاء والشيوخ والعجزة

---

١ – انظر: المصدر السابق، ص٢٢.

٢ – انظر: المصدر السابق، ص٣٧.

٣ – انظر: المصدر السابق، ص٨٢-٨٣.

ولايبالي بمصيرهم ، حالة يبكي عليها الإسلام ويسأل المصلحون إصلاحها . [(١)]

حرص المؤلف على القيام بمسح شامل للحرم في تاريخ الرحلة متحدثاً عن أطواله ومشتملاته وسقايف المذاهب الفقهية التي يصلي فيها إمام كل مذهب إلى أن جمعهم الملك عبدالعزيز على إمام واحد .

وتناولت رحلة الأمير شكيب أرسلان ، المسماة (الارتسامات اللطاف في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف) [(٢)]، التي قام بها عام ثمانية وأربعين وثلاثمائة وألف من الهجرة الموافق لعام ثلاثين وتسعمائة وألف من الميلاد جوانب ثقافية مهمة .

تحدث المؤلف عن مكة المكرمة من حيث صفتُها الحسية ومكانتها المعنوية وكعبتها البهية وهوى القلوب إليها من جميع البرية ورزقها من جميع الأغذية والثمرات استجابة لدعاء إبراهيم ﷺ ، وفي هذا السياق أشار المؤلف إلى أن المجلوبَ لمكةَ من أصناف الحبوب والخضروات والفواكه والمحمول إليها من البضائع والمتاجر والملابس والفراش والرياش والطيب وغير ذلك يفوق مايجلب إلى عشر مدن من أمثالها في عدد السكان وربما أكثر ، ولايكاد الحاج يشتهي شيئاً إلا ويجده في هذه

---

١ – انظر : سعد بن أحمد الربيعة ، رحلة الحاج من بلد الزبير بن العوام إلى البلد الحرام ، مصدر سابق ، ص٨١–٨٢.

٢ – شكيب أرسلان ، الارتسامات اللطاف في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف، نشر مكتبة المعارف بالطائف بتعليق محمد رشيد رضا وعبدالرزاق محمد سعيد كمال عام ١٣٩٧هـ.

البلدة القاحلة ، ثم تحدث عن مصادر المياه في مكة ، ولاسيما عن آبارها منذ عهد الجاهلية ، وعن عين زبيدة ، وعن عين الزعفران ، وعن معاناة الحجاج عند طلب الماء ، حتى جاء عهد الملك عبدالعزيز فزادت سبل الماء وأنشأ مصنعين للثلج بمكة . (١)

ثم تحدث عن الحر في مكة ، وأنه نوعان ، أحدهما الومد وهو الحر الشديد مع انقطاع الريح ، والثاني السموم وهو الريح الحارة وهذه الريح إذا اتقاها الإنسان بمنشفة مبلولة بالماء أو بحصير مرشوش بالماء معلق فوق باب أو نافذة تحولت إلى باردة .

وألمح بفهم عميق وتحليل سديد إلى فائدة هذه الحرارة وأنها لحكمة إلهية عظيمة ؛ لأنها تقتل بشدتها الجراثيم المضرة في موسم اجتماع الناس(٢)

وفي دعوة للانفتاح على الثقافات الأخرى أشار إلى ضرورة بذل الجهد لتخفيف حرارة الأماكن الصحراوية كما فعل الأوروبيون في بلادهم الصحراوية المماثلة للمناطق الحجازية ، بما أسالوا إليها من مياه وماغرسوا فيها من أشجار، وماأحدثوا من مروج خضراء ، واقترح حفر آبار ارتوازية في صحراء عرفة ومزدلفة ومنى تمهيداً لتشجيرها ، منبهاً إلى طبيعتها الجيولوجية القابلة لهذا ، مستشهداً بما جاء في معجم البلدان عن

---

١ – انظر : شكيب أرسلان ، الارتسامات اللطاف في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف، مصدر سابق ، ص٤٤-٤٩.

٢ – انظر : المصدر السابق ، ص٥٠.

آبار عرفة ورياضها وغياضها وسقاياتها وحياضها ومزارعها .[١]

وتحدث عن ذات عرق مستشهداً بماقيل عنها في كتب البلدانيات ، وعن سوق عكاظ وماقيل فيها نثراً وشعراً ، وعن أسواق العرب .[٢]

ورحلة الأمير شكيب أرسلان مليئة بالمعلومات الجغرافية والتاريخية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية واللغوية والأدبية ، بل وتحدث عن عدد من القبائل العربية وماتمتاز به كل قبيلة ومنازلها وعلاقاتها بغيرها من القبائل الأخرى .[٣]

ومن الرحلات التي اصطبغت بصبغة أدبية جميلة ؛ رحلة غلام رسول مهر لأداء الحج ، المسماة (يوميات رحلة في الحجاز)[٤] ، التي قام بها عام ثمانية وأربعين وثلاثمائة وألف من الهجرة ، فقد وصف بأسلوب بديع منظر الحجاج فوق السفينة وهم يسارعون إلى ارتداء ملابس الإحرام والتجهز له والتلبية مع خيوط الصباح الأولى من ذلك اليوم استعداداً للحدث المشهود ، واستوقفه مشهد الرؤوس العارية والأجساد الملفوفة بالبياض والألسنة اللاهجة بالدعاء .

وترك العنان لخلجات نفسه في تلك اللحظات تأثراً بالمشهد الماثل

---

١ – انظر : شكيب أرسلان ، الارتسامات اللطاف ، مصدر سابق ، ص٥٤-٥٦.

٢ – انظر : المصدر السابق ، ص١٤٨-١٥٠.

٣ – انظر : المصدر السابق ، ص٣٢٩-٣٤٠.

٤ – غلام رسول مهر، يوميات رحلة في الحجاز ، ترجمة د/ سمير عبدالحميد إبراهيم ، نشر دارة الملك عبدالعزيز بالرياض عام ١٤١٧هـ .

أمامه ، وتعبيراً عن أهميته الإيمانية والتربوية والنفسية فقال : " هناك الكثير من المعلومات يعرفها الناس عن الإحرام لكن المعلومات التي تأتي في ذهن المحرم نفسه المشارك مع جماعة المحرمين لايعرفها إلا من يخوض تجربة الإحرام ذاتها ، وأدعو الله أن يوفق كل مسلم على وجه البسيطة إلى أن يمر بهذه المرحلة المقدسة مرة واحدة على الأقل في حياته، فبدون هذا الأمر لايمكن أن يفهم المكانة المركزية لبيت الله الحرام والسر الحقيقي لعظمة اجتماع هذا الدين القيم " (١)

يقصد أنه يتمنى أن يتمكن كل مسلم من أداء هذا الركن العظيم ليستشعر آثاره العظيمة في وحدة الأمة الإسلامية ، وثقافتها ، وفي تطبيق المساواة الحقيقية بين المسلمين .

وأشار إلى أن عدداً كبيراً من الحجاج القادمين بالبواخر كانوا ينتقلون من جدة إلى مكة مشياً على الأقدام ووصفهم بأنهم سلسلة بشرية على طول الطريق لم تنقطع حتى وصولهم إلى مكة ، وأوضح شيئاً عن ثقافتهم فذكر أنهم يلجأون إلى قمم الجبال للراحة ويسندون عسيب النخل أو بعض فروع الشجر إلى الصخور أو الأحجار ثم يضعون فوقها الملابس لتظلهم فكانت هذه هي خيمتهم . (٢)

وفي رحلة غلام رسول مهر دعابة محببة تجذب القارىء إليها ، فهو

---

١ - غلام رسول مهر، يوميات رحلة في الحجاز ، مصدر سابق ، ص٤٤ .

٢ - انظر : غلام رسول مهر، يوميات رحلة في الحجاز ، مصدر سابق ، ص٤٩-٥٠ .

مثلاً حينما آوى إلى فراشه لم يستطع النوم بسبب البعوض فيقول بأسلوب أدبي ساخر: " لم نكد نشعر بلذة النوم حتى هوجمنا بجيش من البعوض ، لم أتذكر شاعر الأردية ذوق ، ولم أكن أبداً بحاجة إلى أن أتذكره ، وطبقاً لقول العلامة أبي الكلام أزاد : إن أشعار ذوق بعيدة عن ذوقنا تماماً ، لكن حملة البعوض هذه جعلتني رغماً عني أتذكر قول الشاعر ذوق :

أهناك من يتعلم طبع الشجاعة من البعوض

حين يأتي لمص الدماء يطنطن في البداية البعوض"[١]

ثم تحدث غلام في تسلسل أحداث رحلته عن عدد من الأعلام من العلماء ، والتجار ، والإعلاميين ، وباعة الكتب ، والكتب التي تباع عند باب السلام آنذاك .[٢]

ووصف بعد ذلك ذهابة إلى الملك عبدالعزيز عند لقائه بكبار الشخصيات في الحج ، وعبَّر عن عميق تأثره بالكلمات الإيمانية والبراعة الخطابية لمدة ساعة كاملة التي تجلت في افتتاح الملك عبدالعزيز ذلك اللقاء ، وركزت على ضرورة وحدة المسلمين جميعاً عربهم وعجمِهم وضرورة الالتزام بالعزة بالله وحده دون الخوف من بشر أياً كان .[٣]

ثم عقد غلام فصلاً كاملاً في رحلته للحديث عن جغرافية مكة

---

١ - غلام رسول مهر، المصدر السابق ، ص٥٢ .

٢ - انظر : المصدر السابق ، ص٥٣-٥٤ .

٣ - انظر : غلام رسول مهر، يوميات رحلة في الحجاز ، مصدر سابق ، ص٥٦-٥٨ .

المكرمة ومنى ومزدلفة وعرفات ، معرفاً بعدد من المواقع التي تقع في دائرة جغرافية هذه الأماكن أومن حولها .

وبشكل خاص وصف بدقة متناهية مسجد الخيف عمرانياً واجتماعياً ، وتاريخ وفوائد نهر زبيدة ، كما كان يسميه . (١)

وأسهب في الحديث عن بيت الله الحرام بجميع أركانه ومسمياته مع رسم تقريبي بخط يده لحدود الحرم ، وآخر لتلك المواقع ولطرقها ، وثالث للحرم الشريف وأبوابه وساحاته ومصلياته ، ورابع للطريق من مكة المكرمة إلى عرفات وماعليه من العلامات والمسميات .

ورسم صورة لكيفية الآذان آنذاك ، حيث يبدأ الأذان من سطح مبنى بئر زمزم ويردده ثانياً مؤذن الحرم وكانت كل جماعة من الجماعات الأربع المالكية والحنفية والشافعية والحنابلة تقيم الصلاة على حدة ، والآن تقام جماعة واحدة لكل المسلمين ، فمن بين أفضال السلطان ابن سعود على الحجاز هذا الفضل العظيم . (٢)

كان غلام رسول مهر دقيقاً في ملحوظاته ولذا فقد دوَّن في رحلته استياءه من مزاحمة بعض نساء الحجاج من جنسيات معينة للرجال ومدافعتهن لهم في قوة وشدة تجعل الرجل القوي يفقد توازنه مما يفقد الإحساس الجميل الناتج عن التوجه إلى الله عند الطواف .

---

١ – انظر : المصدر السابق ، ص٨٥–٨٧ .

٢ – انظر : المصدر السابق ، ص٦٢–٧١ .

ووصف حالته عندما واجه ثلاث مجموعات من هؤلاء النسوة انتهت إحداهن في الدفعة الثالثة وكانت ضخمة قوية كما يصفها الشيخ غلام إلى مسك رقبته ودفعه بقوة فتقذفه بدفعة واحدة إلى مقام إبراهيم.

يقول غلام لقاريء رحلته : "وأنت تعرف أنني قوي جداً وضخم الجسم لست نحيفاً ضعيفاً منحني القامة لكنني لم أجرب ضعفي وعدم قدرتي أمام النساء من قبل كما جربتها الآن ، لقد اعتقدت أنني قادر على حماية النساء فمددت يدي حتى يمضين بسلام ، فتقدمت إحداهن ومرَّغت هذا التنطع في التراب ، وبعد ذلك لم أجرؤ على التفكير في قدرتي على حماية النساء من تلك الجنسية ، بل كلما لمحتهن من بعيد خفضت رأسي وأنا أفكر في حماية نفسي" (١)

كما تحدث عن الطائفين على الأسرة المحمولة ومايسببونه من تضييق على الطائفين ، وانتهى إلى ضرورة تقييد هذه العملية بالضرورة القصوى ، ومنع الساعين في المسعى على البغال والحمير ؛ لمافي عملهم من تضييق على الحجاج وقت الزحام وماتسببه دوابهم من أذى.

وتعجب من رغبة الجاويين في الحج ومن بقائهم أطول مدة ممكنة ، واستوقفه منظر أطفالهم الذين يطوفون ويظهر على محياهم بوضوح الشوق والرغبة ، وأبدى بسبب ذلك رغبته في احتضانهم وتقبيلهم

---

١ - غلام رسول مهر، يوميات رحلة في الحجاز ، مصدر سابق ، ص٧٩-٨٠ .

إعجاباً بهم.[١]

ولم تتوقف الرغبات العلمية عند غلام في تنقله بين المشاعر عن التحرك والتشوق ، فاصطحب رجلاً محباً للكتب هو الأستاذ عبدالحي عرب واصفاً له بأنه أصبح بسبب ذلك أقرب الناس إليه .[٢]

كما كان من رفقاء سفره حافظ محمد صديق من كبار التجار ، وذكر أنه " مهتم جداً بالأعمال المتعلقة بتطوير المسلمين وتعليمهم "[٣]

وتلقي رحلة الدكتور محمد حسين هيكل (ت ١٣٧٦هـ) ، المسماة (في منزل الوحي)[٤]، التي قام بها سنة خمس وخمسين وثلاثمائة وألف من الهجرة النبوية مزيداً من الضوء على المعطيات الثقافية في مكة المكرمة في ذلك الزمن ؛ حيث صاغها بأسلوب أدبي جميل ، وامتلأت بتفصيلات كثيرة .

وظهر الجانب الثقافي واضحاً عندما وصف لقاءه بحاج إيرلندي أسلم منذ خمس سنين وأقام في سرواك بماليزيا،ولم تَطِبْ نفسُه كما قال بما دون التعمق في درس حالة المسلمين الاجتماعية والأخلاقية ، وبالبحث بوصف كونه إيرلندياً عن الأسباب التي أودت بهم إلى كراهيةِ الخضوع لغيرهم .

---

١ – انظر : غلام رسول مهر، يوميات رحلة في الحجاز ، مصدر سابق ، ص٨١-٨٢ .

٢ – انظر : المصدر السابق ، ص٥٨ .

٣ – غلام رسول مهر، يوميات رحلة في الحجاز – مصدر سابق – ص٢٠-٢١ .

٤ – د/محمد حسين هيكل ، في منزل الوحي ، نشر دار المعارف بمصر ، ط١.

فأخذت بساطةُ العقيدة الإسلامية بمجامع قلبه ووصلت من تفكيره إلى أعماقه وجعلته يؤمن بحقيقة هذا الدين الذي نزل على النبي العربي ﷺ وبحضارة الأخوةِ والإباءِ التي يدعو إليها ، ويؤمن بأن الحضارةَ التي تنشر أوروبا اليوم لواءَها في العالم باسم العلم ليست من العلم في شيء، فهذه الحضارةُ تتلخص عنده في إخراج الناس من بساطتهم الفطرية التي تكفل لهم سلامةَ التفكير وسموَّ الغايةِ ليخضعوا لأهوائهم وشهواتهم المادية ، فتضعف نفوسُهم ويذِلُّوا ، وأن الحجَّ إنما فُرِضَ لِيُشْهِدَ المسلمُ اللهَ على نفسِه أمام ملأ إخوانِه المسلمين أنه نَبَذَ مااختلط بحياته قبل الحج من ذنوب وأوزار والله يغفر له ماصدق التوبةَ ليولَد ميلاداً روحياً جديداً يكون بعده خيراً مما كان قبله من علم وبصيرة .[1]

وقد كان هيكل جريئاً في طرح آرائه ، يتضح ذلك من إشارته إلى أن خطبة عرفات كانت من الخطب التقليدية التي أَلِفَت الأذانُ سماعَ ألفاظها ومعانيها التي أصبحت لاتتفق وروحَ العصر ولاتتفق كذلك مع طبيعة الإسلام الداعيةِ دائماً إلى التجديد في حدود ماأمر الله به ومانهى عنه.[2]

ومن ذلك الاقتراح الذي طرحه المؤلفُ على الوزير ابنِ سليمان بأن تكون مكةُ مقراً لعصبة للأمم الإسلامية كما أن جنيف مقرٌ لعصبة

---

١ - د/محمد حسين هيكل ، في مترل الوحي ، مصدر سابق ، ص ٩٢-٩٣ .

٢ - د/محمد حسين هيكل ، في مترل الوحي ، مصدر سابق ، ص ٩٤.

الأمم المتحدة . [١]

أما رحلة مسعود عالم الندوي ، المسماة (شهور في بلاد العرب)[٢]، التي قام بها سنة ثمانٍ وستين وثلاثمائة وألف من الهجرة النبوية الشريفة، فقد كان الدافع الأول لها هو الاستجابة لنداء الله عز وجل للحج ، ومع ذلك الهدف الأساس هناك دوافع أخرى متعددة لهذه الرحلة عند مؤلفها صرح ببعضها في مواضع من رحلته ، وألمح في مواضع أخرى إلى البعض الآخر .

فهي رحلة علمية لطلب العلم ، وهي في ذات الوقت رحلة دعوية لتبليغ دين الله ، وهي تعبير عن مودته للعرب وفاء لحملهم الإسلام إلى أصقاع الدنيا وأجناسها ، حيث يقول : فأنا عاشق للعرب أحلم بأن أشاهد العظمة العربية أتغنى بالنخوة العربية والحَمِيَّةِ العربية .

إلا أن هذا التعاطف لم يمنعه أن يتحسر في موضع آخر على تدني ثقافتهم ، فيقول : فالأمة التي اختارها الله لهداية العالم سيطرت عليها الغفلة حتى إنه صار من المخجل أن نتعاطف مع أهلها ونطلب لهم العزاء ، وربما يرجع هذا إلى الثروة التي جرتهم إلى طريق حب الدعة والراحة .

فرحلة الشيخ الندوي بالنظر إلى هذه الدوافع المتعددة تضمنت

---

١ – المصدر السابق ، ص ٨٣.

٢ – مسعود عالم الندوي ، شهور في بلاد العرب ، ترجمة د/سمير عبدالحميد إبراهيم ، نشر مكتبة الملك عبدالعزيز العامة بالرياض عام ١٤١٩هـ .

معلومات وافرة عن الحياة الاجتماعية والثقافية والتاريخية والاقتصادية والسياسية في زمنها .[(١)]

وبهره بشكل خاص منظر الطائفين وهو ماعبّر عنه بأسلوب أدبي بديع قائلاً : واتجهنا مباشرة إلى الحجر الأسود ، كان هناك هجوم للفراشات على الشمع ، وكان الحرم بأكمله بقعة من نور تحوم حولها فراشات التوحيد ، ووسط المنزل المعمور بالنور نقطة سوداء تبدو أكثر البقاع ضياء ، وعلى حافة هذه النقطة كانت الفراشات تدور وتدور .

وأشار في معرض وصفه إلى أن المطاف كان سوقاً عامرة مزدحمة بالناس ، وكانت السيارات أيضاً تسير في المطاف ، ثم تحدث عن مشقة البحث عن سكن في مكة المكرمة ، إضافة إلى كون أرضيتها ترابية والطرقات ترابية .[(٢)]

كما تحدث عن المدرسة الصولتية ، والمدرسة الفخرية[(٣)]، ودار الحديث بمكة ، ومكتبة الحرم والمكاتب التجارية عند باب السلام ، ولفت انتباهه أن المدرسة الفخرية تعطي المتفوقين جوائز من النقود ، وتألم من ذلك لأنه يربي العقلية التجارية على حساب الثقافة ، وتمنى لو كانت الجوائز كتباً ، كما تحدث عن لقائه بخالد الفرج .[(٤)]

---

١ – انظر : مسعود عالم الندوي ، شهور في بلاد العرب ، مصدر سابق ، ص ٣٩ – ٤٠ .

٢ – انظر : المصدر السابق ، ص٤٠١ – ٤٠٢.

٣ – انظر : المصدر السابق ، ص٤٠٤ – ٤٠٨.

٤ – انظر : مسعود عالم الندوي ، شهور في بلاد العرب ، مصدر سابق ، ص٤٢٧ – ٤٢٨.

وجاء حديثه عن أيام رحلته بحسب تسلسلها الزمني وماعمله في كل وقت والمعاناة التي عاناها والأشخاص الذين قابلهم ، وكان مما تحدث عنه الشيخ مسعود الندوي لقاء الملك عبدالعزيز بكبار الشخصيات من الحجاج الذي كان هو من المدعوين إليه ، والحفل الخطابي المرافق لهذا اللقاء .

كما وصف مؤتمر الحج بوصف أدبي رائع مبرزاً دلالاته ومعانيه الإيمانية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية والسلوكية ومايلمسه المتأمل فيه من ذوبان العصبية والقومية والعرقية .

وفي ملمح ثقافي أشار إلى أنه عندما عاد إلى منى مرة أخرى ليكمل رمي الجمار ساءه ترك سنة الذكر عند رمي الجمار برغم أهميتها ، وساءه أكثر مايصاحب الرمي من السب والشتم بأقذع ألفاظ السباب بدعوى تأديب الشيطان ، بل لفت النظر إلى أن الحجاج والأهالي أصبحوا يسمون الجمار بالشيطان ، حتى إنك لوسألت إنساناً أين موقف السيارات المتوجهة إلى مكة لقال لك على الفور : إنه عند الشيطان الأكبر أي الجمرة الكبرى . [1]

وفي ثنايا هذه الرحلة تبرز محبة الشيخ الندوي للعلماء وطلبة العلم وكتب العلم ، ولذا فقد حرص على لقاء عدد كبير من العلماء والأعلام المعروفين ، ومن هؤلاء الأمير مساعد بن عبدالرحمن والأمير

---

١ – انظر : مسعود عالم الندوي ، شهور في بلاد العرب ، مصدر سابق ، ص٤٦٠– ٤٦١.

سعد بن عبدالرحمن والشيخ عمر بن حسن آل الشيخ والشيخ عبدالله ابن حسن آل الشيخ والشيخ عبدالعزيز بن عبدالله آل الشيخ ، والشيخ عبدالرحمن بن محمد بن عبداللطيف آل الشيخ ، والشيخ عبدالله بن إبراهيم آل الشيخ والشيخ عبداللطيف بن إبراهيم آل الشيخ والشيخ عبدالملك بن إبراهيم آل الشيخ والشيخ عبدالعزيز بن عبدالله بن باز والشيخ محمد بن مانع وغيرهم .

لقد كان مسعود الندوي حريصاً على الالتقاء بأحفاد الشيخ محمد ابن عبدالوهاب وتلامذته والاطلاع على كتبهم ؛ لأنه يرى كما صرح في كتابه أن لدعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب أثراً واضحاً في ظهور أدب متنوع بلغات العالم المختلفة .

كما حرص على الالتقاء بالشيخ حمد الجاسر وعبدالقدوس الأنصاري .

يضاف إلى ذلك أن الشيخ الندوي التقى في رحلته بعدد من العلماء من مختلف أنحاء العالم مثل الشيخ عبدالوهاب عزام والشيخ محمد حامد الفقي والشيخ محمد الأمين الحسيني مفتي فلسطين ، وسجل مشاهداته وانطباعاته عن لقاءاته بهم بأمانة ظاهرة .

وظهرت ذائقة الشيخ الندوي الأدبية من خلال اللقاءات الأدبية التي

كان حريصاً على حضورها ، بل المشاركة فيها . [١]

ولكون مؤلف الرحلة صاحب تجربة صحفية ثرية في بلده الهند فقد ناقش أحوال الصحافة في العالم العربي وبخاصة في المدن التي زارها ، كما كتب عن المكتبات الحكومية والمكتبات الخاصة والمدارس .

وكانت له فلسفة خاصة في اختيار هدايا الحج ، فهو ينفر من شراء الهدايا المجلوبة من خارج الحرمين ولاسيما من البلاد الأجنبية ، ويفضل عليها ماء زمزم لأنه أصدق تعبيراً عن مدلول هدية الحج ومضامينها النبيلة ، ومعه التمر وبعض الكتب .

ومما يلفت النظر في رحلة الشيخ مسعود الندوي أنه كان جريئاً في إبداء آرائه بصدق وأمانة ، ويمكن الاستشهاد على هذه الميزة بعدد من الشواهد ومن أهمها :

أن الشيخ الندوي قدَّم في كثير من أجزاء رحلته مقترحات جريئة للقضاء على بعض المظاهر السيئة والبدع والعادات البعيدة عن روح الدين أو الخلق القويم ، وكانت له مناظرات ومشادات كلامية في هذا المضمار .

ومن ذلك أن السبب الأول في إعجابه بالشيخ عبدالعزيز بن باز أنه مع علمه جريء في قول الحق .

---

١ – انظر : مسعود عالم الندوي ، شهور في بلاد العرب ، مصدر سابق ، ص٣٤٣-٣٤٤وص ٣٤٧-٣٥١وص٤٧٧.

ومن ذلك صراحته في وصف أوجه القصور التي تعاني منها مدينة الرياض جواباً لسؤال الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله بن حسن ، ابن رئيس القضاة وخطيب عرفة لما التقيا في مكة المكرمة .

وهو أيضاً في موضع آخر يوصي الحكومة السعودية بوضع حلول إسلامية لمشكلة الفقر عندما رأى مظهراً من مظاهره أثناء رحلته .

كما برز في الرحلة حرص الشيخ الندوي على تحري السنة في كل أعماله ، وإن اضطر إلى تجاهل إشباع عواطفه والاستجابة لجواذبه ، وهذا جانب آخر من جوانب الجرأة والشجاعة .

ولذلك فهو يقول : كان الناس يتشبثون بأستار الكعبة وجدرانها يدعون الله ، وكان هذا المنظر هو كل مايمكن أن تشاهده في كل ناحية وفي كل اتجاه ، ومن الواضح أن مثل هذه الحالة من الجذب والشوق تغلب على الإنسان وتؤثر فيه وتجعله في حالة من الوجد .

لكن مانقل عن رسول الله ﷺ أنه اتجه بوجهه المبارك ناحية الملتزم فقط مابين باب الكعبة والحجر الأسود وأشار بذراعه الكريمة ، ولهذا أطلق عليه الملتزم ، وذكر ابن تيمية أنه من المستحسن أن تقف قريباً من الملتزم .

ثم يقول : وقد احتاط كاتب هذه السطور حتى الآن فيما يتعلق بالتمسك بستائر الكعبة أو لمس جدرانها ، فلدي عواطف شوق وعشق وجذب ، ولدي أيضاً نهج السنة والعشق الذي يجعل الإنسان يتعدى

حدود السنة ليس بعشق إنما هو بداية للبدعة .

بعد الانتهاء من طواف الوداع شعرت برغبة من داخلي للذهاب ثانية إلى الملتزم لأداء هذه السنة أيضاً فهذا أطيب ، ومن حسن حظي أن المكان كان خالياً فمكثت فترة أتوجه إلى الله بالدعاء .

ثم يقول : عادة مايعود الناس بظهورهم بعد طواف الوداع حتى لاتكون ظهورهم إلى الكعبة المشرفة ولاأدري من روّج لهذه البدعة.(١)

وتجيء رحلة محمد كامل حتة ، المسماة (صور من الحجاز) (٢)، التي قام بها سنة ١٣٧٢هـ حافلة بالحديث عن ثقافة مكة المكرمة ، حيث تكلم فيها عن بعض الأدباء والشعراء كأحمد الغزاوي ، وفؤاد شاكر ، ومحمد سرور الصبان ، وعبدالله أبي الخير ، وأحمد عطار ، وعبدالقدوس الأنصاري .

وذكر مشاهداته عن الصحف والمجلات الحجازية كالبلاد السعودية ، التي يرأس تحريرها عبدالله عريف ، وأم القرى التي يرأس تحريرها الطيب الساسي ، ومجلة المدينة التي يرأس تحريرها علي وعثمان حافظ ، كما تكلم عن محمد نصيف ومكتبته .

كما شمل حديثه ذكر عدد من دور العلم والمدارس ، كالصولتية ، والفلاح ، ومعهد العلوم الشرعية، والمعهد العلمي السعودي ، ومدرسة

---

١ - انظر : مسعود عالم الندوي ، شهور في بلاد العرب ، مصدر سابق ، ص٥٠٠- ٥٠١.

٢ - محمد كامل حتة ، صور من الحجاز ، نشر مجلة صرخة العرب بالقاهرة ١٣٧٢هـ .

تحضير البعثات ، وكلية الشريعة واللغة ، والكلية العسكرية ، ودار التوحيد ، وتحدث عن ضعف تعليم البنات آنذاك ، وعن حياة المرأة في مكة في البادية والحاضرة .

وتحدث عن مجالس النخب الفكرية ، وتحديداً عن أمسيات محمد سرور الصبان ، وعن مقابلته لفيلبي بمكة . (١)

وأشار الدكتور عبدالهادي التازي إلى جوانب ثقافية مهمة في رحلته المسماة (التحليق إلى البيت العتيق) (٢) ، التي قام بها عام ثمانية وسبعين وثلاثمائة وألف من الهجرة النبوية الشريفة ، فتحدث عن لقائه بعدد من كبار الأدباء السعوديين مثل عبدالعزيز الرفاعي وأحمد السباعي وعبدالقدوس الأنصاري حيث كان الدكتور التازي ورفاقه من الوطنيين المغاربة يحرصون أشد الحرص على متابعة واستنساخ مجلة المنهل. (٣)

كما تحدث في رحلته عن لقائه بخادم الحرمين الشريفين الملك فهد رحمه الله – وزير المعارف آنذاك – لتسليمه رسالة من وزير التهذيب الوطني المغربي، للتعرف على مظاهر النشاط الثقافي في المملكة العربية السعودية. (٤)

ويتعجب مؤلف الرحلة من غرابة أدعية بعض الناس ثم يقول لابد

---

١ – انظر : محمد كامل حتة ، صور من الحجاز ، مصدر سابق ، ص ٥٨-٧٩ .

٢ – د/عبدالهادي التازي ، التحليق إلى البيت العتيق ، نشر دارة الملك عبدالعزيز بالرياض عام ١٤٢٣هـ .

٣ – انظر : المصدر السابق ، ص٣٠ .

٤ – انظر : المصدر السابق ، ص٣٤ .

للمتعة أن تصيخ بآذانك لتسمع وسائل الناس في خطابهم مع ربهم.[١]

ثم طرح على نفسه سؤالاً سجله وظل يردده هو : هل الحج مؤتمر؟ وهل ساعدهم الحج في التعرف على شخصيات إسلامية عالمية ؟

وأجاب بقوله : إننا إذا توخينا الصراحة في القول لانملك غير القول بأن النتيجة كانت سلبية ليس بالنسبة إلي في هذا العام ولكن بالنسبة للكل وفي سائر الأعوام ، فإذا استثنينا بعض الالتقاءات بالصدفة والنادرة التي جمعتنا ببعض الناس نجد أنفسنا كأننا لم نخرج من المغرب .

فأهل كل قطر يلتئم حُجَّاجُه ببعضهم ، حديثهم في نفس المستوى والموضوع الذي كانوا عليه في بلادهم ، وأنكى من هذا وأسوأ أن الناس الذين هم من قطر واحد هم أيضاً فرق وجماعات ، فأهل هذه المدينة لايتعرفون على أهل المدينة الأخرى ، وحجاج تلك القرية لايخالطون حجاج القرية الأخرى ، وبعد هذا فإن الطبقات الثرية قلما تستمع إلى الآخرين أو تجتمع بهم ، وحتى الوفود الرسمية لايتعارفون فيما بينهم ، لاأحد يعرف مكان الآخر وكأنه لايهمه أن يعرف .

وهكذا فلكل وجهته ، وإنما الناس يؤدون هذا الواجب أي الحج وهم في نظري - أي نظر كاتب الرحلة - بعيدون كل البعد عن فكرةٍ توحي بالتعارف والتآلف .

فكاتب الرحلة يعبر عن انطباعه حيال عدم الاستفادة المُثلى من

---

١ - انظر : المصدر السابق ، ص٨٣ .

مؤتمر إسلامي بحجم مؤتمر الحج يمكن أن يُوظَّف لجمع كلمة المسلمين وتوطيد أواصر الإخاء والمودة والثقافة بينهم إذا استثمر بشكل صحيح ليحقق الأهداف التربوية والثقافية من تشريعه .

بل إنه دعا الحكومة السعودية لاستثمار هذه المناسبة عن طريق كتاب أو صحيفة توزع على الحجاج للتعريف بجهودها .

ويقول : كان يمكن أن يكون الحج مناسبة للدولة المُضيفة لنشر أكبر عدد ممكن مما يمس التعريف الدقيق بهذه الأراضي المقدسة ويمس نشاط الحكومة ، مثلاً أريد أن أقول : إن على أجهزة الدعاية أن تعرف عدد الحجاج ليصبح أو يمسي عند كل واحد منهم صحيفة أو كتاب ، إن الدول تبعث بمنشوراتها إلى البلدان النائية ، أفليس خليقاً أن تستثمر الدولة السعودية هذه المناسبة أحسن استثمار؟[١]

والحالة الثقافية في مكة المكرمة كانت واضحة أيضاً في رحلة محمد نديم الوفائي ، المسماة (حكاية حج) ، التي قام بها سنة ١٣٨١هـ ، حيث أشار إلى مجلة قريش التي أصدرها أحمد السباعي ، ومجلة الرياضة ومجلة الحج ، وجريدتي البلاد والندوة ، وأشار بصفة خاصة إلى حركة الطباعة في مكة المكرمة، وإلى ورش حفر الصور والزونكغراف . [٢]

وتأتي رحلة عبدالله بن علي بن الشيخ أبي بكر من جيبوتي ،

---

١ – انظر : د/عبدالهادي التازي ، التحليق إلى البيت العتيق ،مصدر سابق ، ص٩٥-٩٦ .

٢ – انظر : محمد نديم الوفائي ، حكاية حج ، نشر مكتب حمص للصحافة والنشر ، ص ٩٥-٩٧ .

المسماة (قرة العين في الرحلة إلى الحرمين الشريفين) [١]، التي قام بها سنة ١٣٨٢هـ مركزة على كثير من الجوانب الثقافية المهمة ، حيث تحدث عن تطور التعليم ، ومناهج الدراسة ، وصلة البيت بالمدرسة[٢].

إضافة إلى حديثه عن آثار مكة المكرمة ، ومشاعرها ، وتوسعة الحرمين الشريفين . [٣]

كما تحدث عن مجالس الوعظ بالحرم المكي ، ولفت الانتباه إلى تعدد جنسيات الواعظين . [٤]

---

١ – عبدالله بن علي بن الشيخ أبي بكر ، قرة العين في الرحلة إلى الحرمين الشريفين ، مطبعة محمد علي صبيح وأولاده بمصر ، ط١ ، ١٣٩٠هـ .

٢ – انظر : المصدر السابق ، ص٣١-٣٣ .

٣ – المصدر السابق ، ص١١٦-١٦٢ .

٤ – المصدر السابق ، ص٢٧٦.

المبحث الثاني

(نماذج للجوانب الثقافية في كتابات الرحالة الغربيين عن مكة المكرمة)

تميزت كتابات الرحالة الغربيين بأنهم قدموا – غالباً – من أجل الاستكشاف ، بغض النظر عن أهدافهم المبيتة ، وصحة إسلامهم من عدمها ، والاستكشاف عادة يعطي صاحبه قدرة عجيبة في تتبع التفصيلات الدقيقة التي لاتلفت نظر الإنسان العادي ، ولاتستوقف تفكيره .

كما أن

هذه التفصيلات تقود – غالباً – إلى حقائق أخرى ؛ لأن الاستكشاف – عادة – سلسلة متشابكة الحلقات .

وفي هذا المبحث – كما في المبحث السابق – سأورد نماذج للجوانب الثقافية في تلك الرحلات ؛ لأن الاستقصاء متعذر نظراً لكثرة عدد الرحلات ، وتجددها ، إذ تضاف بين الفينة والفينة كتابات عن رحلات كانت مطمورة في أرفف المكتبات ، ولضخامة المجالات التي تناولتها تلك

الكتابات ، حيث تتنوع الثقافات بتنوع مجالات الحياة ذاتها لتصبح ثقافات اقتصادية وطبية وزراعية وغيرها ، وبحسب سلوك الإنسان حيث تظهر ثقافة الاحتطاب وثقافة السقيا ، ونحو ذلك ، مما يجعل محاولة التقصي شائكة الدروب ، وعرة المسالك .

نبدأ هذا المبحث بإطلالة ثقافية سريعة على رحلة مبكرة هي رحلة لودفكو فارتيما ، المسماة (رحلات فارتيما)[١]، الذي قام بها سنة ١٥٠٣م ، وسمى نفسه الحاج يونس.

القيمة الحقيقة لهذه الرحلة في أنها تؤكد أهمية الرحلات في رسم السياسات الدولية ؛ لأن الهدف منها كان خدمة التوسع البرتغالي ، كما ظهر منها عناية الغربيين بالتعرف على ثقافات الشعوب لضمان نجاح الخطط السياسية الموضوعة ، علاوة على أن فارتيما وصف الكعبة وعرفات ومنى ومزدلفة وصفاً له أهميته بالنظر إلى الزمن المبكر للرحلة.[٢]

وثمة رحلة مبكرة مشابهة لها في سوء المقصد ، إنها رحلة جوزيف بتس ، المسماة (رحلة جوزيف بتس إلى مصر ومكة المكرمة

---

١ – لودفكو فارتيما ، رحلات فارتيما ، ترجمة وتحقيق د/ عبدالرحمن الشيخ ، نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط١ ، ١٩٩٥م.

٢ – انظر : المصدر السابق ، ص١٠ –١٢ .

والمدينة)[١]، التي قام بها سنة ١٦٨٠م ، وسمى نفسه الحاج يوسف .

وبرغم ماكتبه هذا الرحالة من عبارات السخرية بمناسك المسلمين كتسميته الكعبة وثن المسلمين ، والتندر بوقائعهم التاريخية ، كحادثة شق صدر النبي ﷺ [٢]، إلا أن هذه الرحلة بالنظر إلى تاريخها المبكر تعد ذات أهمية في التعرف على بعض الجوانب الثقافية السائدة آنذاك .

كما أنه تحدث عن العشب والفواكه في مكة المكرمة ، وعن بعض عادات وثقافة السكان ، ووصف المسجد الحرام ومشتملاته وصفاً دقيقاً. [٣]

وثمة جوانب ثقافية أخرى نجدها واضحة في رحلة دمينجو باديا ليبليش ، الرحالة الأسباني إلى مكة المكرمة [٤] ، التي قام بها عام ١٨٠٧م ، وسمى نفسه : علي بك العباس .

فقد تميزت هذه الرحلة بأنها أوضحت بجلاء أثر ثقافة الرحلات في توجيه السياسات العامة ، وفي محاولة تفسير بعض الظواهر الاجتماعية، والثقافية المهمة ، فقد كان هذا الرحالة " يحمل أجهزة علمية دقيقة جداً، منها مقياس للرطوبة الجوية ، وآلات أخرى فلكية ، تمكنه من

---

١ – جوزيف بتس ، رحلة جوزيف بتس إلى مصر ومكة المكرمة والمدينة ، ترجمة وتحقيق د/ عبدالرحمن الشيخ ، نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط١ ، ١٩٩٥م .

٢ – انظر : جوزيف بتس ، رحلة جوزيف بتس إلى مصر ومكة المكرمة والمدينة – مصدر سابق – ٤٦.

٣ – انظر : المصدر السابق ، ٤٩–٥٠.

٤ – محمد حسين زيدان ، رحلات الأوروبيين إلى نجد وشبه الجزيرة العربية ، نشر دارة الملك عبدالعزيز بالرياض ، ط١ ، ١٣٩٧هـ .

الحصول على معلومات علمية دقيقة عن مستوى البحر عند جدة وينبع، وتمكنه من تحديد مواقع المدن بالنسبة لخط الاستواء ، كما تمكنه من الوصف البيولوجي للجبال ، ووصف النباتات ، والحيوانات ، والحشرات " [١]

كما قدم تقريراً علمياً مفصلاً عن الحج ، ووصف المسجد الحرام وصفاً دقيقاً مطابقاً للواقع ، كما ألقى ضوءاً على ثقافة أتباع الدعوة السلفية – دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب ، ويظهر أن هذا هو أهم عامل في تنفيذ رحلته – .

ووصف دخول جيش الدرعية للحج وعلى رأسهم الإمام سعود وأبو نقطة ، ووصف العلم المنقوش عليه لاإله إلا الله محمد رسول الله.[٢]

لننتقل بعد ذلك إلى رحلة السويسري بوركهارت (ت ١٨١٧م) ، المسماة (رحلات في شبه جزيرة العرب) [٣]، التي قام بها سنة ١٨١٤م، وسمى نفسه الحاج إبراهيم عبدالله .

حيث تحدث عن بعض منازل أعيان مكة من المثقفين والعلماء والتجار ، وتكلم عن البناء والعمران فيها ، وعن الماء وثقافة السكان في

١ – محمد حسين زيدان ، رحلات الأوروبيين إلى نجد وشبه الجزيرة العربية – مصدر سابق – ص ٩-١٠.

٢ – انظر : المصدر السابق ، ص ١٠-١١.

٣ – جون لويس بوركهارت ، رحلات في شبه جزيرة العرب ، ترجمة د/ عبدالعزيز الهلابي ، ود/عبدالرحمن الشيخ ، نشر مؤسسة الرسالة بيروت ، ط١ ، ١٤١٣هـ .

تخزينه ، وحمامات مكة العامة ، ومعامل الأواني الفخارية على جبل أبي قبيس ، والمصانع والطواحين الضخمة التابعة للحكومة التركية ، والمصابغ الوحيدة في الحجاز كله لصبغ الكتان والقطن . (١)

وتحدث بإسهاب عن حلقات التدريس في الحرم . (٢)

وعن هيئة العلماء الذين يحملون العصا ، وعن ثقافة نساء مكة وملابسهن وزينتهن ، وتربية أهل مكة لأولادهم ، وملاحظة المؤلف أنهم لايفسدونهم بالدلال كسائر أهالي مدن الشرق .

كما تحدث عن العلماء العاملين في المسجد الحرام . (٣)

وتحدث عن ثقافة الديكور في مكة ، وزينة المنازل ببسطها وفرشها ووسائدها وأرائكها ، وتزاور الجيران ، وحبهم للمزاح ، وعن الثقافة الشعبية من خلال حديثه عن بعض الألعاب المشتهرة في المجتمع المكي. (٤)

وأشار بوركهارت إلى العلم والتعليم ومعوقاتهما في مكة ، والمدارس والأربطة التي تحولت إلى مساكن للحجاج . (٥)

وتحدث عن حفلات الختان ، وعضل البنات – منعهن من الزواج –

---

١ – انظر : جون لويس بوركهارت ، رحلات في شبه جزيرة العرب – مصدر سابق – ص ١٠١–١٢١.

٢ – انظر : المصدر السابق ، ص ١٤٢.

٣ – انظر : المصدر السابق ، ص ١٧٣–١٧٤.

٤ – انظر : المصدر السابق ، ص ١٨٣–١٨٩.

٥ – انظر : المصدر السابق ، ص ١٩٤.

وضعف القضاة . [١]

ونجد بعض المعطيات الثقافية عن مكة المكرمة في رحلة ليون روش الفرنسي ، المسماة (رحلة ليون روش إلى الحجاز) [٢]، التي قام بها عام ١٨٤١-١٨٤٢م ، وسمى نفسه الحاج عمر بن عبدالله .

وعلاوة على وصف الكعبة ، والحرم ، والمشاعر ، فقد تحدث روش عن الدروس في الحرم المكي ، وعن المؤدبين الذين يعلمون الصبيان القرآن الكريم ، وعن المدرسة التي سماها جامعة السليمانية بمكة المكرمة، وذكر أن علماءها من كبار السن ، وأن لهم حرمة كبيرة ، وامتياز إلقاء دروس الوعظ على كرسي الحرم . [٣]

ومن خلال رحلة روش يمكن للقاريء أن يلم بالحالة الثقافية السائدة في مكة المكرمة – كغيرها من الدول الإسلامية في ذلك العصر- ولاسيما غلبة البدع على الحياة العامة ، وتآمر أصحاب البدع مع المستعمرين ، فقد صرح روش أن أتباع الطائفة التيجانية ، وطوائف صوفية أخرى ساعدوه على تمرير مشروعه للقضاء على الجهاد الإسلامي في الجزائر ضد المستعمرين . [٤]

---

١ – انظر : المصدر السابق ، ص ٢٠٠-٢١٤.

٢ – ليون روش ، رحلة ليون روش إلى الحجاز ، د/بلقاسم سعد الله ، الرحلات إلى شبه الجزيرة العربية ، نشر دارة الملك عبدالعزيز ، ١٤٢٤هـ .

٣ – انظر : المصدر السابق ، ص ٢٧٧.

٤ – انظر : المصدر السابق ، ص ٢٥٢-٢٥٣.

والرحلة التالية هي رحلة ريتشارد بيرتون ، المسماة (رحلة بيرتون إلى مصر والحجاز) [(١)]، التي قام بها عام ١٨٥٣م ، وقد أشار خلالها إلى حج السلفيين (الوهابيين) من نجد ، المصاحبين لقافلة بغداد، ووصف جمالهم ، وطريقة ركوبهم عليها ، ونساءهم اللائي قال عنهن إنهن لاينتمين للجنس الناعم ، إلا أن هذه الطائفة أعجبته عندما داهمهم خطر اللصوص فلم ينقذهم سوى هؤلاء الوهابيين، الذين ذكر أنهم حازوا إعجابه في ثقافتهم القتالية . [(٢)]

كما تحدث عن ثقافة السكان في علاقاتهم الاجتماعية بحسب الأحياء ومايعتريها من مشكلات ، بسبب تلك الثقافة . [(٣)]

ثم تحدث عن مشاعره الروحية عندما دخل الحرم ووقف أمام الكعبة لأول مرة في حياته ، مطنباً في بيان الأثر الثقافي لهذه المناجاة الروحية . [(٤)]

كما وصف المشاعر والكعبة وصفاً دقيقاً ، مبيناً تاريخها ، وجغرافيتها، ومافيها من الاثار . [(٥)]

---

١ – ريتشارد بيرتون ، رحلة بيرتون إلى مصر والحجاز – الجزء الثالث – ، ترجمة وتحقيق د/ عبدالرحمن الشيخ، نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ط١ ، ١٩٩٥م .

٢ – انظر : المصدر السابق ، ص ٢٤-٢٦.

٣ – انظر : المصدر السابق ، ص ٣١.

٤ – انظر : المصدر السابق ، ص ٣٦.

٥ – انظر : المصدر السابق ، ص ٥١-٨٠.

ووصف قرود الحجاز وصفاً دقيقاً وشاملاً ، ولفت الانتباه إلى ميلها للنساء ، وتحدث عن رقصة الحرب عند الأعراب . [(١)]

وذكر بيرتون كثيراً عن طبائع سكان مكة وثقافتهم الاجتماعية والاقتصادية ، والجوانب الإيجابية والجوانب السلبية في شخصياتهم.[(٢)]

رحلة بيرتون مليئة بالحديث عن المزارات ، والبدع ، والخرافات التي لايصدقها عقل ، التي ينقلها عن غيره نقل المسلم بها ، كما أنه عقد فصلاً كاملاً عن المواضع التي يقصدها الزائرون للتبرك في مكة المكرمة ، مما يعطي لمحة عن الثقافة المتدنية السائدة في ذلك العصر . [(٣)]

كما تحدث بيرتون عن الثقافة اللغوية عند بعض أهل مكة ، مشيراً إلى أعرابي عجوز يتحدث الفارسية، والهندوستانية بلغة سليمة ، والباشتو ، والأرمنية ، والإنجليزية ، والفرنسية ، والإيطالية ، إضافة إلى لغته الأصل العربية ، وعرف منه أنه يعمل مرشداً للحجاج ، مما يدل على أثر ثقافة مكة المكرمة في سكانها . [(٤)]

وقد حفلت رحلة المستشرق الهولندي سنوك هورخرونيه ، المسماة

---

١ – انظر : ريتشارد بيرتون ، رحلة بيرتون إلى مصر والحجاز – الجزء الثالث – ، مصدر سابق ، ص ٨٣-٨٤.

٢ – انظر : المصدر السابق ، ص ٩٣-٩٥.

٣ – انظر : المصدر السابق ، ص ١٠١ -١٠٨.

٤ – انظر : المصدر السابق ، ص ١١١.

(صفحات من تاريخ مكة المكرمة) [١] ، التي قام بها سنة ١٨٨٤-١٨٨٥م ، وسمى نفسه عبدالغفار ، بكثير من المعطيات الثقافية ؛ لأنها من أغنى الرحلات ، بل هي أغناها على الإطلاق من الناحية الثقافية ؛ لتركيزها على هذا الجانب ، ولطول مدة مكث كاتب الرحلة في مكة المكرمة التي تجاوزت ستة أشهر متواصلة .

ولذا يمكن القول إن من الصعوبة بمكان فرز المحطات الثقافية في هذه الرحلة التي تجاوزت سبعمائة صفحة مطبوعة ، غير أنه يمكن إعطاء إلماحات إلى هذه المحطات .

استعرض هورخرونيه في الجزء الأول من كتابه موقع مكة المكرمة ، والحرم ومشتملاته ، والكعبة ، وتاريخ مكة المكرمة عبر القرون [٢]

أما الجزء الثاني من الكتاب فقد كان ألصق بالجوانب الثقافية ، حيث تحدث عن الحياة اليومية في مكة المكرمة ، مشيراً إلى أجناس السكان وخصائصهم وثقافاتهم[٣] ، والبيت المكي وأثر ثقافة سكانه في

---

١ - كرستيان سنوك هورخرونيه ، صفحات من تاريخ مكة المكرمة ، ترجمة وتعليق د/ علي عودة الشيوخ ود/محمد السرياني ود/معراج مرزا ، نشر دارة الملك عبدالعزيز بالرياض ، ط١ ، ١٤١٩هـ ، وانظر : د/عبداللطيف بن دهيش ، دراسة موجزة لبعض مؤلفات كريستيان سنوك هروغرونيه ، مجلة العرب س ١١، ع ١١و١٢ ، جماديان ١٣٩٧هـ ٩٤٢-٩٤٨.

٢ - انظر : المصدر السابق ، ١/٦٥- ٣٠٧.

٣ - انظر : المصدر السابق ، ٢/٣١١-٣١٤.

تشكيله[١].

وتكلم عن المرأة المكية ، ولباسها ، وعن عادات الزواج والطلاق ، وتعدد الزوجات ، وعن الطب والخرافات في مكة المكرمة ، والقراءة في الكتاتيب [٢].

كما خصص فصلاً كاملاً للحديث عن التعليم في مكة المكرمة ، تناول فيه علوم الحديث ، والمدارس الفكرية السائدة ، والمؤلفات المطبوعة والمتداولة ، والمصدر المعيشي لطالب العلم ، والمدارس في مكة، وأقدم جامعاتها وهو الحرم الشريف ، وتكلم عن المدرسين فيه ، وجنسياتهم ، وطريقة التدريس ، ومكانه وحلقاته ، ووقت إلقاء الدروس والمحاضرات ، ومذاهب المدرسين .

وتحدث عن شيخ العلماء في الحرم ، وكيفية إصدار إجازة التدريس ، وطريقة الامتحان لها .

كما تناول حديثه دراسة كبار السن ، وإلقاء المحاضرات في الحرم ، وتعليم العربية للأعاجم ، والكتب المعتمدة في تدريس العلوم المختلفة ، والمجاورة في مكة وأثرها الثقافي ، وماكان يرمز إليه بالمنافسات والمشاحنات بين الاتجاهات الفكرية المختلفة في مكة ، وهو مايعرف بثقافة الردود بين ذوي الآراء المختلفة ، إلى غير ذلك مما يتعلق بالجوانب

---

١ - انظر : كرستيان سنوك هورخرونيه ، صفحات من تاريخ مكة المكرمة ، ترجمة وتعليق د/ علي عودة الشيوخ ، ود/محمد السرياني ، ود/معراج مرزا – مصدر سابق – ٢/٣٤٥-٣٥٤.

٢ - انظر : المصدر السابق ، ٢/٤٠٢-٤٦٣.

الثقافية . (١)

بل إن التركيز الثقافي في كتابات هورخرونيه ظهر حتى عند تناوله الحديث عن عناصر السكان في مكة المكرمة ، فأبرز المعطيات الثقافية المؤثرة في التركيبة السكانية ، والخصائص الثقافية لكل عنصر سكاني منها ، كما ألمح إلى الأثر المتعدي للحج وثقافة مكة في البلدان الإسلامية(٢).

ولم يقتصر ماكتبه هورخرونيه عن ثقافة مكة المكرمة على التسجيل فحسب ، بل إنه كان يدون ملحوظاته ، واستنتاجاته وتعليلاته الشخصية ، المتعلقة بهذا الشأن ، وهو مانستشفه من قوله : " والحياة العلمية في مكة لها جاذبية خاصة للذين يتذوقون طعم هذه الحياة ، فالدراسة فيها تسمح بتبادل الأفكار والآراء " (٣)

وكوصفه بعض المؤلفات بقوله : " ومن الجدير بالذكر أن بعض هذه المؤلفات لايختلف عن غيره إلا في بعض التفصيلات ، وفي بعض الإضافات اليسيرة، الأمر الذي لايثير كبير اهتمام بها " (٤)

وتجيء رحلة مهمة للرحالة الفرنسي جيل كورتلمون

---

١ – انظر : كرستيان سنوك هورخرونيه ، صفحات من تاريخ مكة المكرمة ، ترجمة وتعليق د/ علي عودة الشيوخ ، ود/محمد السرياني ، ود/معراج مرزا – مصدر سابق – ٢/٤٦٧–٥٤٠

٢ – انظر : المصدر السابق ، ٢/٥٤١–٦٣٠.

٣ – المصدر السابق ، مصدر سابق – ٢/٥١٠.

٤ – المصدر السابق ، ٢/٥١٠.

(ت١٩٣١م)[١]، الذي قام بها ليؤدي العمرة عام أحد عشر وثلاثمائة وألف من الهجرة النبوية ، (١٨٩٤م) ، بعد أن أسلم وسمى نفسه عبدالله بن البشير .

وصاحب الرحلة فنان تشكيلي أفرغ كثيراً من مشاعره وعواطفه وانفعالاته وقدراته التشكيلية في ألوان ريشته لتشكيل صورة حية للواقع ، لذا فإن هذه الرحلة تميزت بامتزاج الريشة بالعدسة أو التسابق بينهما في رسم الظلال والألوان والحركات والسكنات إلى درجة يصعب التفريق بينهما أحياناً .

كما أن هذه الرحلة تمت بعد قليل من إعلان كورتلمون إسلامه وتغيير اسمه إلى عبدالله بن البشير وفي حقبة تاريخية مهمة مما يعطي لها أهمية لاتخفى نظراً لأهمية المعلومات التاريخية التي يقدمها المؤلف توثيقاً وتحليلاً لتلك الحقبة الزمنية .

ويرجع جزء من أهمية رحلة كورتلمون إلى كونه من الأوروبيين القلائل الذين دخلوا في وقت مبكر حرمي مكة المكرمة والمدينة ، فضلاً عن استخدامه الكاميرا لالتقاط الصور الفوتغرافية في ذلك الوقت الذي يواجه فيه حامل كاميرا التصوير بالعقوبة حتى خارج الحرمين الشريفين، كما أنه سعى إلى الارتقاء بالصور المكتوبة إلى مستوى الصور التي

١ - جيل جرفيه كورتلمون ، رحلتي إلى مكة ، ترجمة د/ محمد الحناش ، نشر مؤسسة التراث بالرياض ، ط١ ، ١٤٢٣هـ .

تلتقطها الكاميرا مركزاً في الجزئيات والتفاصيل الصغيرة مازجاً الواقع بالخيال. [١]

وتحدث عن أهمية مكة بصفتها مركزاً للثقافة الإسلامية حيث يتم توزيع الإنتاج الثقافي من خلاله ، مشيراً إلى المطبعة الوطنية بجوار الصفا، ولافتاً النظر إلى أن مكة المكرمة التي يقصدها جميع المسلمين من كل حدب وصوب أصبحت مركز إشعاع ثقافي وعلمي .

وأكَّد ذلك بحرص الهنود سنوياً على إرسال عدد كبير من المؤلفات في التفسير والتاريخ القديم والطب وغيرها من العلوم ؛ لتنتقل من مكة المكرمة إلى جميع أقطار العالم الإسلامي . [٢]

كما شمل حديثه الإشارة لثقافة الري عند حديثه عن مصادر مياه مكة المكرمة وطرق السقيا فيها ، حيث أشار إلى أن المياه العذبة تُجلَب من جبال الطائف عبر قناة مبنية وقوية جداً ، وتسقى مكة من القناة نفسها عبر فتحات من مسافة إلى أخرى حيث يرمي الرجال الدِّلاءَ المصنوعة من جلد الماعز ويملأون بها القِرَب الكبيرة التي يحملونها إلى البيوت على ظهورهم أو على ظهور الحمير ليفرغوها في أوانٍ فخارية كبيرة . [٣]

وتحدث عن سوق البادية الذي يعقد كل صباح مشيراً إلى طبيعة

---

١ – انظر : جيل جرفيه كورتلمون ، رحلتي إلى مكة ، ترجمة د/ محمد الحناش – مصدر سابق – ص٣٦.

٢ – انظر : المصدر السابق ، ص٨٧.

٣ – انظر : المصدر السابق ، ص٩٦.

رواد هذا السوق ونوع ألبستهم ونحو ذلك من المظاهر العامة للأهالي هناك والبضاعة التي تعرض فيه ولاسيما الأعمال والمشغولات اليدوية التي تصنعها النساء مثل خُرُوج الفرو المصنوعة من خيوط جلدية متعددة الألوان منسوجة أو معقودة بعناية فائقة وخراطيش من الجلد المصبوغ باللون الأسود مزينة بمسامير صغيرة من الفضة وخيوط من الجلد المفتول وأباريق القهوة ذات المصب الطويل – يقصد دلال القهوة العربية –[1]

كما أشار إلى ثقافة الاحتطاب عند أهالي مكة متحدثاً عن اهتمام الأهالي الزائد بالاحتطاب وذلك بقطع شجر العرعر حيث تربط الجذوع في حُزَم صغيره ثم تجمع الفروع في حزم أخرى وكذلك يفعلون بشجر الأثل مرجعاً ذلك إلى ندرة المحروقات وغلاء ثمنها .

كما أشار إلى طريقة الأهالي آنذاك في جمع علف المواشي عن طريق البحث عن العشب ثم جمعه قشة قشة وتجفيفه في الظل وفتله على شكل حبال كأنها خصلات من الشعر النباتي ويحفظ مشدوداً ومجففاً .[2]

ولم يتجاهل دكان الهندي المقابل لنافذة مسكنه حيث أبدع في وصف جلسته وعمله في نحت بعض المجسمات الجمالية المستوحاة من بيئة مكة المكرمة ومشاعر الحج وتلوينها لبيعها بعد ذلك مع أدوات

---

١ – انظر : جيل جرفيه كورتلمون ، رحلتي إلى مكة ، ترجمة د/ محمد الحناش – مصدر سابق – ص٩٧.

٢ – انظر : المصدر السابق ، ص٩٨-٩٩.

القرطاسية.[١]

وحاول تقديم حلول واقعية للتغلب على كثير من مشكلات الطرق والصحة كدعوته إلى تنفيذ مقترح السكة الحديد بين مكة المكرمة وجدة وهو مقترح لم يُلْغِ فائدته اختراعُ السيارات ، ومثل الحلول الصحية لتنظيم مجزرة الهدي في منى ، وهو مقترح تمَّ تنفيذه بعد ذلك في العهد السعودي متمثلاً في مجزرة منى النموذجية بالمعيصم .[٢]

ونجد معطيات ثقافية أخرى في الرحلة السرية للضابط الروسي يفيم ريزفان (عبدالعزيز دولتشين) إلى مكة ، المسماة (الحج قبل مائة سنة)[٣]، التي قام بها عام ١٨٩٨-١٨٩٩م .

فقد تحدث عن عملية بيع الرقيق المجلوب من الحبشة ، وعن فئات السكان .[٤]

وتكلم عن الحيوانات والنباتات والزواحف في الحجاز عموماً ، وفي مكة خصوصاً ، وأسباب ندرة النباتات وخزن الهشيم ، والثقافة العامة بين السكان في كيفية التعامل معه .[٥]

---

١ – انظر : جيل جرفيه كورتلمون ، رحلتي إلى مكة ، ترجمة د/ محمد الحناش – مصدر سابق – ص٨٨.

٢ – انظر : المصدر السابق ، ص١٥٤.

٣ – يفيم ريزفان (عبدالعزيز دولتشين) ، الحج قبل مائة سنة ، نشر دا التقريب بين المذاهب بلبنان ط٢ عام ١٤١٤هـ .

٤ – انظر : المصدر السابق ، مصدر سابق – ص ٧٧.

٥ – انظر : يفيم ريزفان (عبدالعزيز دولتشين) ، الحج قبل مائة سنة – مصدر سابق ص ١٠٦-١٠٧.

وتناول الصفات الشخصية لأعراب مكة ، ونسائها ، وثقافتهم الدينية المغرقة في الأساطير ، وثقافتهم الاجتماعية المتمثلة في عاداتهم ، وثقافتهم الصحية عن التداوي والعلاج . (١)

كما تحدث عن الثقافة المعمارية من خلال الهندسة المعمارية لبيوت مكة وجدرانها ومشربياتها وغير ذلك ، وألبسة السكان ، وطبقاتهم ، وتكلم عن الحياة الفكرية لأهل مكة ، والجرائد التي تفد إليهم ، والمطبوعات الهندية التي يقدم بها الحجاج ، وثقافة الاتصالات متمثلة في البريد والتلغراف .

كما أشار إلى وظيفة القضاة والمفتين والمحتسبين .(٢)

وركز بشكل خاص على المدارس الدينية في مكة والمدينة ، وطرق التدريس فيها ، وأنواع العلوم المتداولة . (٣)

ولاتغيب عن الذهن رحلة عبدالرشيد إبراهيم ، المولود في سيبيريا ، الذي أصبح من الدعاة والرحالة في اليابان ، المسماة (عالم الإسلام)(٤)، التي قام بها عام ١٣٢٧هـ (١٩٠٠م -١٩٠١م)

فقد تحدث عن علماء مكة ، وتنوع الثقافة اللغوية عندهم ،

---

١ - انظر : المصدر السابق ، ص ١١٢.

٢ - انظر : المصدر السابق ، ص ١٤١-١٦٠.

٣ - انظر : المصدر السابق ، ص ١٧٠-١٧٣.

٤ - محمد حرب ، مكة عام ١٣٢٧هـ من خلال كتاب عالم الإسلام لعبدالرشيد إبراهيم ، عالم الكتب ، المجلد العاشر ، ع٢، شوال ١٤٠٩هـ .

ومسميات كتبهم [1].

كما تحدث عن كثرة مدارس مكة في زمن الرحلة – وقت نفوذ جمعية الاتحاد والترقي – ، إلا أنه أردف قائلاً : لكن لم يكن هناك في مكة مفتٍ ولامدرس ولاعالم يشار إليه بالبنان ، بل أكثر من ذلك وصفها بأنها محرومة من العلم ومن الفضائل الإنسانية . [2]

وتحدث أيضاً عن مؤتمر إسلامي مصغر للمطالبة بوحدة إسلامية منطلقها مكة المكرمة ، وأشار إلى أهم المتحدثين فيه [3].

وهناك الرحلة اليابانية لتاكيشي سوزوكي – محمد صالح – ، المسماة (ياباني في مكة) [4] ، التي قام بها عام ١٣٥٦هـ (١٩٣٨م) ، تحدث فيها عن الحرم المكي والكعبة والحجر الأسود [5]، وتحدث عن الثقافة المعمارية من خلال تصميم بيوت مكة[6] .

كما أشار إلى الثقافة المكية في ترطيب الجو عن طريق مجاري المياة المتدلية من السطوح لتتحول إلى رذاذ أو بخار [7]، وتحدث عن تصميم

---

١ – انظر : المصدر السابق ، ص ٢٥٩.

٢ – انظر : المصدر السابق ، ص ٢٦٠.

٣ – انظر : المصدر السابق ، مصدر سابق – ص ٢٦١.

٤ – تاكيشي سوزوكي ، ياباني في مكة ، ترجمة د/ سمير عبدالحميد إبراهيم وسارة تاكاهاشي ، نشر مكتبة الملك عبدالعزيز العامة بالرياض ١٤١٩هـ .

٥ – انظر : المصدر السابق ، ص ١٣١–١٣٥ .

٦ – انظر : تاكيشي سوزوكي ، ياباني في مكة – مصدر سابق –ص ١٤٥ .

٧ – انظر : المصدر السابق ، ص ١٥٠–١٥١ .

غرف الحريم ولباسهن ، وعادات الزواج . (١)

١ – انظر : المصدر السابق ، ص ١٦٢–١٦٨ .

المبحث الثالث

(أدب الرحلات الحجازية والأثر المتعدي لثقافة مكة المكرمة)

من المؤكد أن أدب الرحلات الحجازية كان له تأثير ثقافي قوي ، من حيث الجانب الوصفي للحالة الثقافية السائدة في مكة المكرمة عبر العصور المختلفة ، ومن حيث الاستفادة منه ؛ إلا أنه من المهم التنبيه إلى الأثر المتعدي لثقافة مكة المكرمة ، بحيث امتدت آثاره إلى مختلف الأقطار الإسلامية ، ليسهم في تشكيل ذاكرتها الثقافية .

باديء ذي بدء لابد من الوعي بأن هذا الأثر الثقافي المتعدي لمكة المكرمة بدأ مبكراً ، وأنه مضمون الاستمرار من الله عز وجل إلى قيام الساعة ؛ لأن الإسلام انطلق من مكة المكرمة نحو العالم أجمع ؛ مصداقاً لقول المولى سبحانه وتعالى : (وماأرسلناك إلا رحمة للعالمين) [1] ، ونظراً لأن رسالة نبينا محمد ﷺ رسالة عالمية وخاتمة للرسالات ، فإن

---

١ - سورة الأنبياء ، الآية ١٠٧ .

أثرها مستمر ، وبالتالي فإن استمرار أثر مكة الثقافي مستمر باستمرارها، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

وإن مما لايصح الاستنكاف عنه أن هذا الأثر المتعدي يتعلق بواجب ديني يقوم به علماء مكة ، ومن رضع ثقافة مكة المكرمة ، ولابد أن يتلقاه الآخرون ممن اطمأنت نفوسهم في رحاب الإيمان بالقبول ؛ لأنه إرث إسلامي يتجدد مع العصور ، فقد كان من أهم خصائص الدين الإسلامي أنه دين الدعوة ، وأن أمة الإسلام هي أمة الدعوة ، كما جاء في محكم التنزيل ، في قوله الكريم : (ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون) [1]

ومكة المكرمة تحديداً لها من هذه الخصيصة أكبر الأثر بحكم أنها قبلة المسلمين ، ومهوى أفئدتهم ، وموطن كثير من عباداتهم ، ومقدساتهم ، ومنذ العهد النبوي الشريف ، وفور أن فرض الحج إلى بيت الله الحرام ، تعلم المسلمون عدداً من الدروس المهمة ، أهمها على الإطلاق أن يكون الحج موطناً للقاء بين العالم والمتعلم ، بين الفقيه والمتفقه .

وفي جامعة حجة الوداع كان المعلم الأول ﷺ مركز إشعاع علمي للمعرفة والفقه في الدين ، ومن على ثرى مكة المكرمة في تلك المناسبة العظيمة– حجة الوداع - كان ﷺ حريصاً أشد الحرص على تبليغ العلم والفقه لكل المسلمين ، لذا أمر أن يحمل العلماء من بعده أمانة تبليغهما،

---

١ – سورة آل عمران ، الآية ١٠٤.

فقد روى زيد بن ثابت ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال : (نضّر الله عبداً سمع منا حديثاً فحفظه ، حتى يبلغه غيره ؛ فإنه رب حامل فقه ليس بفقيه ، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه) (١)

كما أمر المصطفى ﷺ عمه العباس ﷺ أن يبلغ بصوته – وكان جهوري الصوت - من لايصل إليه صوته ﷺ من المسلمين في صعيد عرفات ؛ دلالة على أهمية تبليغ العلم والفقه ، وهكذا أصبح مألوفاً أن يتعدى أثر مكة الثقافي إلى أصقاع الأرض قاطبة .

وفي هذا العصر ، الذي تطورت فيه وسائل الإعلام والاتصال لايجحد عاقل ماهذه الوسائل من أثر في نشر ثقافة مكة المكرمة ، وكم نقلت لنا الأخبار عن إسلام عدد من الناس تأثراً بمشهد متلفز عن مناسك الحج انتقل عبر الوسائط الإعلامية من مكة المكرمة إلى أطراف الأرض البعيدة .

من المؤكد أن مكة المكرمة بالنظر إلى خصائصها الدينية ستظل – دوماً – ساحة تلاقح فكري لابد أن يتعدى أثره حيث " يقدم الوافدون إلى مكة المكرمة ، فيهدون إليها شذرات من ثقافاتهم وعلومهم ، وتهديهم مكة – بدورها – علماً واسعاً ، ومعارف نافعة ، ويجدها الناس قد هيأت لهم جماعات من العلماء ، وجحافل من المثقفين ،

---

١ – الإمام أحمد ، المسند ، تحقيق شعيب الأرناؤوط ورفيقيه ، الحديث رقم ٢١٥٩٠، نشر مؤسسة الرسالة ، ط١ ، ١٤٢٠هـ ، ٣٦٧/٣٥، وصححه الشيخ الألباني في صحيح الجامع برقم ٦٧٦٥، الألباني ، صحيح الجامع الصغير وزياداته ، نشر المكتب الإسلامي ، ط٣ ، ١٤٠٨هـ،١١٤٥/٢.

يستجيبون لتطلعاتهم " (١)

وهذا الأثر لم يكن غائباً عن أذهان ذوي الاهتمام بتعقب التداعيات الثقافية لمكة المكرمة ، ولذا كان في دائرة تفكير ودراسة الرحالة العرب والأجانب أيضاً ، الذين نبهوا إليه ، وفصلوا القول في نتائجه .

نجد مثلاً أن " الإسحاقي كان كثير الاهتمام بالشؤون الثقافية ، وكانت له عناية بذكر الأشعار ، وتدوين بعض الأخبار المتصلة بشؤون الفكر ، سواء أكانت مرتبطة بالإطار الفقهي ، أو بالإطار التاريخي، أو بالإطار الاجتماعي ، ولذا لانظن أن المهتمين بتاريخ المغرب يمكنهم الاستغناء عن المعلومات المقتبسة من هاته الرحلة – رحلة الوزير الإسحاقي الشرقي الحجازية – ، فهي ستمكن الكثير من الباحثين من الاطلاع على بعض أحوال المغرب ، وعلى بعض اهتماماته التاريخية العامة ، وعلى بعض شؤونه الفكرية والأدبية في القرن الثاني عشر الهجري" (٢)

إن رحلة الإسحاقي الحجازية ، التي تعد معبرة عن ثقافة مكة أصبحت مرجعاً لتاريخ المغرب ، بحيث لايستغني الباحثون في تاريخ المغرب في عصرها عن الرجوع إليها .

---

١ – محمد الحبيب الهيلة ، أثر الحج في الحياة الثقافية والاجتماعية عبر العصور ، مكة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية بحوث ودراسات ، الندوة العلمية الكبرى ، وزارة الحج ١٤٢٣هـ ، ص ٤٦٥.

٢ – حمد الجاسر ، رحلة الوزير الشرقي الإسحاقي إلى الحجاز ، – مصدر سابق – ، تعليقات الأستاذ محمد بن عبدالعزيز الدباغ محافظ خزانة جامعة القرويين في مدينة فاس ، ص٦٦٤.

ومن الرحالة الغربيين تناول هورخرونية الهولندي أثر الحج ، وثقافة مكة الدينية في المسلمين في بلاد الجاوى [١]

كما أكَّد كورتلمون الفرنسي الأثر المتعدي لثقافة مكة بإشارته إلى حرص الهنود سنوياً على إرسال عدد كبير من المؤلفات في التفسير والتاريخ القديم والطب وغيرها من العلوم ؛ لتنتقل من مكة المكرمة إلى جميع أقطار العالم الإسلامي . [٢]

وتوقف يفيم ريزفان الروسي طويلاً عند تأثير الحج في مسلمي روسيا ، وربط ذلك بثقافة الحاج واهتماماته وتفكيره ، كما نبه إلى تأثير الحجاج الروس في سكان الحجاز . [٣]

وهذا الأثر الثقافي المتعدي ملحوظ بشكل جلي في رحلات علماء الشناقطة ، حيث تصطبغ به هذه الرحلات " المنثورة منها والمنظومة ، المدونة وغير المدونة ، ويظهر فيما تتضمنه من إفادات وإنشادات ، وماتعرضه من أخبار وأشعار ، وماتحتوي عليه من معلومات علمية وأدبية ، فهي تضم بين ثناياها الكثير من الأشعار ، والفتاوى ، والمناظرات ، اللغوية ، والفقهية ، والمساجلات والمطارحات ، التي شهدتها رحاب مكة خلال موسم الحج وبعده ، بين الشناقطة وغيرهم

---

١ - انظر : كرستيان سنوك هورخرونيه ، صفحات من تاريخ مكة المكرمة ، ترجمة وتعليق د/ علي عودة الشيوخ ، ود/محمد السرياني ، ود/معراج مرزا - مصدر سابق - ٥٧٤/٢و٥٨١.

٢ - انظر : جيل جرفيه كورتلمون ، رحلتي إلى مكة ، ترجمة د/ محمد الحناش - مصدر سابق - ص٨٧.

٣ - انظر : يفيم ريزفان (عبدالعزيز دولتشين) ، الحج قبل مائة سنة - مصدر سابق - ص ٢٢٥-٢٢٩.

من علماء العالم الإسلامي ، مما جعلها أشبه بالموسوعات العلمية " [١]

لقد ذكر صادق (خضر) العبادي ثلاث عشرة ومائة مادة مخطوطة عن الرحلات الحجازية ، والرسائل العلمية الفارسية المخطوطة والمطبوعة حول جغرافية الحرمين الشريفين ، وماحقق منها ، وماطبع حديثاً [٢]

فهذا العدد الضخم من الإنتاج الفارسي عن مكة المكرمة يبين – دون أدنى شك – الأثر المتعدي لثقافة مكة المكرمة في البلاد الفارسية ، بل وماحولها كباكستان والهند وتركيا ، بالنظر إلى ما هو موجود في مكتبات هذه الدول من الرحلات الحجازية الفارسية وغيرها .

وجانب جدير بالتسجيل هو أثر المجاورين الذين رحلوا للحج ، وأقاموا في مكة المكرمة مدة من الزمن تشربوا خلالها بثقافتها ، ثم عادوا لبلادهم ، " فمنهم من تصدى للتأليف فزود المكتبة العربية بنتاج ثقافته، التي تلقى بعضها أو معظمها أثناء مجاورته للكعبة ، ومن هؤلاء خلف بن قاسم بن سهل الذي ألف كتباً حساناً في الزهد ، وعبدالله بن محمد بن يوسف الأزدي الذي كانت له تآليف حسنة أخذها عنه كثير

---

١ – محمد الظريف ، مكة المكرمة في رحلات علماء شنقيط ، مكة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية بحوث ودراسات – مصدر سابق – ص ١٦٣.

٢ – صادق (خضر) العبادي ، أدب الرحلات الفارسية إلى مكة المكرمة ، مكة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية بحوث ودراسات – مصدر سابق – ص ١٧٨–١٨٨.

من العلماء ... " (١)

" بل إن بعض المجاورين كان له أثر أكبر من ذلك ، وهو الإسهام في تحويل بلد بكامله من مذهب إلى مذهب ، فقد ذكر أن زياد بن عبدالرحمن بن زياد ، المعروف بشبطون فقيه الأندلس على مذهب الإمام مالك كان أول من أدخل مذهبه إلى الأندلس وكان الناس قبله يتفقهون على مذهب الأوزاعي " (٢)

ووقف الكتب صورة أخرى من صور الأثر المتعدي لذاكرة مكة الثقافية ، حيث " لم يكتفِ بعض هؤلاء المجاورين من أهل الأندلس بجمع الكتب ليستفيد منها هو ومن حوله من طلابه ، ولكنه وسّع دائرة الاستفادة ، فوقف كتبه وتآليفه على كل المشتغلين بالطلب والتحصيل ، مثلما صنع أبو العباس أحمد الميورقي (ت ٦٧٨هـ) في وج بالطائف.

وكان لاهتمام المجاورين الأندلسيين بالتقييد والتدوين والنسخ والتأليف أثره في ذيوع ماصنفوا من كتب ، مثل كتاب التفسير لابن أبي الفضل المرسي ، وتجريد الصحاح لرزين السرقسطي ، ومعجم التفسير لابن مسدي الغرناطي ، وغيره " (٣)

---

١ – العربي سالم الشريف ، مكة والمجاورون الأندلسيون ... ، مكة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية بحوث ودراسات – مصدر سابق – ص ٢٤٦.

٢ – المصدر السابق ، مصدر سابق – ص ٢٤٧.

٣ – حسن الوراكلي ، المجاورون الأندلسيون ... ، مكة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية بحوث ودراسات – مصدر سابق – ص ٣٤٤.

وأثر مكة والحج في ثقافة وأدب شبه القارة الهندية ممالايحتاج إلى استشهاد لوضوحه عبر العصور التاريخية المختلفة ؛ فقد " كان بين الهند وأرض الحرمين علاقات خاصة ومتميزة ، فقد كانت قلوب أهل الهند حكاماً ومحكومين تتوق إلى أرض الحرمين ، كما كانوا يأملون في نيل الثواب من الله بإكرامهم للمدينة المقدسة وأهلها" (١)

ولضرب مثال من الواقع على الأثر المتعدي لثقافة مكة المكرمة ، هذا هو صبي مكة أبو الكلام آزاد ، الذي نشأ في مكة المكرمة ، ورضع ثقافتها " نال استحسان الجميع ، وتعجب مولانا شبلي النعماني ، وأديب الأردية حالي ، حين التقيا بهذا الفتى ، الذي هو مدير تحرير لسان الصدق .

لقد شكلت نشأته في مكة المكرمة شخصيته العظيمة " (٢)

وفي جانب ثقافي هام يلفت النظر في الأثر المتعدي لثقافة مكة المكرمة، تلك الحركات الإصلاحية التي شهدتها بقاع عديدة في أصقاع المعمورة ، وكان زعماؤها نتاج ثقافة مكة المكرمة ، حين تأثروا بها .

مثلاً شهدت شبه القارة الهندية عدداً من حركات الإصلاح الديني

---

١ – د/سمير عبدالحميد إبراهيم ، أثر مكة والحج في ثقافة وأدب شبه القارة الهندية ، مكة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية بحوث ودراسات – مصدر سابق – ص ٤٠٨-٤٠٩.

٢ – المصدر السابق ، ص ٤١٤.

كحركة تيتو مير ، والحركة الفرائضية ، وجماعة المجاهدين " (١)

ومن الجوانب المهمة لأثر ثقافة مكة المكرمة المتعدي ماانعكس في إنتاج الشعراء والأدباء ، حنيناً إلى مكة المكرمة ومافيها من مقدسات ، وتعبيراً عن التجليات الروحية عند الرحلة إليها ، ومن قرأ الرحلات الحجازية التي ألفها عدد من علماء شنقيط ، وتلك التي ألفها بعض علماء الهند وباكستان فسيجد هذا الأثر واضحاً جلياً ، بل إن هناك رحلات حجازية نظمت نظماً شعرياً ، كالرحلة الموهوبة البخارية في الرحلة الميمونة الحجازية ، وأصفى الموارد في تهذيب نظم الرحلة الحجازية للشيخ الوالد ، لمحمد المختار السنوسي وغيرها . (٢)

وجانب مهم يتعلق بالأثر المتعدي لثقافة مكة المكرمة هو الفوائد التربوية المستقاة من ارتباط المسلم بمشاعر الحج المحسوسة ؛ لأن في الحج شعائر متراصة ومتعاقبة ، لكل شعيرة هدف نبيل ، ومغزى تربوي هادف ، يقول الله سبحانه وتعالى : (ذلك ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب) (٣)

فهل لهذه الشعائر معانٍ تربوية ؟

---

١ – انظر : د/سمير عبدالحميد إبراهيم ، أثر مكة والحج في ثقافة وأدب شبه القارة الهندية ، مكة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية بحوث ودراسات – مصدر سابق – ص ٤١٩.

٢ – انظر : د/محمد بن حسن بن عقيل الشريف ، المختار من الرحلات الحجازية إلى مكة والمدينة النبوية ، نشر دار الأندلس الخضراء، ط١ ، ١٤٢١هـ ١/١٣-١٤.

٣ – سورة الحج ، الآية ٣٢ .

للإجابة على هذا السؤال لابد من العلم بأن من دلائل عظمة الإسلام وشواهد إعجازه ؛ أنه يحتفي بالفطرة البشرية ، ويراعي متطلباتها السوية في تشريعاته ، ويحرص على التوازن بين الجوانب الروحية والمادية في الحياة ، فالإنسان ليس عقلاً مجرداً ، ولاكائناً جامداً ، ولكنه ذو طبيعة مزدوجة قوامها العقل والقلب .

وفطرة الإنسان التي يلمسها ويشاهدها كل أحد تقول - لو كان لها أن تنطق - : إن هذا الإنسان يبحث عن الأشياء التي يراها بعينه ويحن إليها قلبه ؛ ليبثها أشواقه ، ويفضى إليها بحنينه ، ويشبع بها رغباته الملحة ؛ فكانت شعائر الحج تلبية لدواعى الفطرة المستقيمة واستجابة لتطلعاتها الشغوفة .

(فإذا رأى الحاج هذه الأشياء المحسوسة الظاهرة ، المنسوبة إلى الله تعالى (شعائر الله) ذكر الله تعالى، وتأمل كيف تجلت عظمته سبحانه في هذه الشعائر ، ثم انتقل بتصوراته في مرحلة لاحقة إلى مايرتبط بها من وقائع وأحوال تذكره بإخلاص التوحيد كما هي دعوة الخليل صلى الله عليه وسلم ، وتذكره باليوم الآخر والطريق إليه كما يرمز إلى ذلك اللباس الموحد للحجاج .

ولأبي حامد الغزالي – رحمه الله - استظهار لطيف ودقيق حول هذا المعنى التربوي لشعائر الحج ، فيقول رحمه الله : فالشوق إلى لقاء الله عز وجل يسوق الإنسان إلى أسباب اللقاء لامحالة ، هذا مع أن المحب

مشتاق إلى كل ماله إلى محبوبه إضافة ، والبيت مضاف إلى الله عز وجل فبالحري أن يشتاق إليه لمجرد هذه الإضافة ، فضلاً عن الطلب لنيل ماوعد عليه من الثواب الجزيل .

ثم يقول : واعلم أنك في الظاهر ترمي الحصى إلى العقبة وفي الحقيقة ترمي به وجه الشيطان ، وتقصم به ظهره ؛ إذ لايحصل إرغام أنفه إلا بامتثالك أمر الله سبحانه وتعالى تعظيماً له بمجرد الأمر من غير حظ للنفس والعقل فيه .

ويشير الشيخ أبو الحسن الندوي إلى أن الشوق غريزة في الإنسان الحي السليم ، وحاجة من حاجاته، وأنه يبحث له عما يقضي به حاجاته ، ويروي غلته ، فكان البيت العتيق وماحوله من شعائر الله ، والحج ومافيه من مناسك خير مايحقق رغبته ، ويسلي حنانه وعاطفته ، وقد قال الله تعالى : (وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت أن لاتشرك بي شيئاً وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على مارزقهم من بهيمة الأنعام فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق) [1]

وماأشار إليه الشيخ الندوي ظاهر للعيان لأن كل حركة لابد لها من

---

١ - سورة الحج ، الآيات ٢٦-٢٩ .

غـذاء وزاد ، وحركـة الـشوق والحـنين تحتـاج إلى غـذاء للقلـب وزاد للعاطفة وسقيا للوجدان ، بمايحقق الشبع والإرواء بحسب قـوة الحركـة وضعفها ، ويؤكد الشيخ أحمد الدهلوى هذا المعنى بقوله : وربما يـشتاق الإنسان إلى ربه أشد شوق ، فيحتاج إلى شيء يقضي به شـوقه فلايجـده إلا الحج) [١]

ولأن الحج ماضٍ إلى يوم القيامة فإن الارتباط بين المشاعر المعنويـة ، الساكنة في وجدان المسلم ، وبين المشاعر المادية ، المتمثلة في مشاعر الحج بمكة المكرمة سيوقظ الأثر المتعدي لثقافة مكـة المكرمـة ، عـبر العـصور المختلفة ، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

وجانب ثقافي مهم نلمح من خلاله تعدي أثر ثقافة مكة المكرمة ، هو أهمية التواصي في بناء العلاقات الإنسانية ، ومن المتأكد أن مكة المكرمة تشغل حيزاً كبيراً من الخارطة الذهنية لكل مـسلم ، ولـذا فـإن ثقافتهـا مؤهلة للانتقال عن طريق التواصي .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : (وهذا الموجـود في المنكـر نظـيره في المعروف ، وأبلـغ منـه ، كمـا قـال تعـالى : ﴿ والـذين آمنـوا أشـد حبـاً لله﴾[٢]، فإن داعي الخير أقوى ، فإن الإنسان فيه داع يدعوه إلى الإيمـان والعلم والصدق والعدل وأداء الأمانة ، فإذا وجد من يعمل مثـل ذلـك

١ – إبراهيم السماري ، الفوائد التربوية في الحج ، ط١ ، الرياض ١٤٢٣هـ ص٤٣-٤٥ .

٢ – سورة البقرة ، الآية ١٦٥ .

صار له داع آخر ، لاسيما إذا كان نظيره ، ولاسيما مع المنافسة ، وهذا محمود حسن ، فإن وجد من يحب موافقته على ذلك ومشاركته له من المؤمنين والصالحين ، ويبغضه إن لم يفعل ذلك صار له داع ثالث ، فإذا أمروه بذلك ووالوه على ذلك وعادوه وعاقبوه على تركه صار له داع رابع ، ولهذا يؤمر المسلمون أن يقابلوا السيئات بضدها من الحسنات كما يقابل الطبيب المرض بضده) [١]

والتواصي ذو أثر بليغ في ثقافة الإنسان لأنه يتغلغل في فكره ، وينعكس في سلوكه ، حتى دون أن يشعر بتأثيره .

" قد يكون الفعل غير مقصود التأثيرفي الآخرين من الفاعل ، ولكن الآخرين ينتفعون به عرضاً ، فيكتسب تأثير التواصي وصفته حينئذ ، ولهذا كانت القدوة - حسنة وسيئة - باباً من أبواب التواصي بهذا المعنى " [٢]

قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً ﴾ [٣]، وهكذا الشأن في ورثته من العلماء ، ولاسيما في البلد الحرام من علماء البيت الحرام ،

---

١ - ابن تيمية ، رسالة الحسبة ، تحقيق محمد زهري النجار ، نشر المؤسسة السعيدية بالرياض ، ط١ ، ١٩٨٠م ، ص١٥٦-١٥٧.

٢ - إبراهيم السماري ، الإبداء في الدعوة الإسلامية ، ط١ ، الرياض ١٤٢٤هـ ص١٢١.

٣ - سورة الأحزاب ، الآية ٢١ .

الذين يصبحون ويمسون قدوة للمسلمين ، وبذلك يتعدى أثر ثقافة مكة من هذا الجانب .

ولنأخذ مثلاً مضروباً يؤكد هذه الحقيقة ، بلسان شاهد من أهلها ، لنجد أن " الإنسان العثماني شغوف بسماع كل مايتعلق ببيت الله الحرام ، والمشاعر المقدسة ، بل إن مخيلته تصور له تلك البقاع المباركة ، ويسبح في جو روحاني فذ " (١)

وهو أثر مستمر لايقطعه سوى الموت " وهكذا كانت مكة المكرمة رمزاً مميزاً في مخيلة الإنسان العثماني ، كان حاضراً في ذهنه ، وينشده بلسانه ، في أشعاره وقصائده ، ويزين أطراف بيته بصوره وآثاره ، كما كان البيت العتيق ماثلاً أمام عينيه مع تعاقب الليل والنهار ، بل لشدة ولعه به سمى ابنه بمايذكره بالحج على الدوام – الحاج – ، فأصبح هذا الابن حاجاً ، حتى لو لم يرد الحجاز أبداً " (٢)

---

١ – د/سهيل صابان ، رمزية الحج ومكانة مكة المكرمة في مخيلة الحجاج العثمانيين ، مكة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية بحوث ودراسات – مصدر سابق – ص ٥٥٠.

٢ – المصدر السابق ، ص ٥٥٤.

المبحث الرابع

(نماذج للجوانب الثقافية من البيوتات العلمية بمكة)

الحديث عن الأعلام ذو شجون دوماً ؛ لأن الأمة أية أمة إنما تُعرَف برجالها الأفذاذ ، الذين يصنعون تاريخها ويذيعون سمعتها بين الأمم .

فهم شامات فخر في جبين أمتهم ، تزدهر بتتالي العطاءات ، وهم القدوة للأجيال الناهضة بعدهم ، ولكل جيل رجاله الذين يُرجَع إليهم ويُستمَع لقولهم في تخصصاتهم .

وفي كل أمة ووطن أعلامٌ حازوا المنزلة الرفيعة في مجتمعاتهم ؛ بما وهبهم الله من علم وفهم وتميز فكري أو عملي فاق أقرانهم ونفع أمتهم وأوطانهم . قال عنهم الإمام الآجري رحمه الله تعالى : (هم سراج العباد ومنار البلاد وقوام الأمة وينابيع الحكمة) [1]

ومن المؤكد أن هؤلاء الأعلام لم يحظوا بما حظوا به من ضربة حظ أو محض صدفة ، وإنما هو نتيجة عمل دؤوب جاد ، أثمر بتوفيق الله نتائج باهرة في نفع ذواتهم ومجتمعاتهم وأمتهم .

---

١ - محمد الآجري ، أخلاق العلماء ، تحقيق د. محمد النقراشي ، نشر مكتبة النهضة بالقصيم ، ص٨٢ .

ولأن الوفاء والعرفان لهؤلاء الأعلام هو أقل الواجب فقد عُرفت كتب السِّيَر والتراجم منذ بدء التدوين ، ومع تطور النهضة العلمية تعددت مجالات الوفاء ، وكثرت صور العرفان .

ولعل الندوات العلمية المتخصصة عن الأعلام ، التي دأبت على تنظيمها بعض المؤسسات العلمية النشطة كدارة الملك عبدالعزيز ، ومركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية ، ومكتبة الملك عبدالعزيز العامة ، ومكتبة الملك فهد الوطنية ، وبعض الجامعات ؛ تأتي في رأس هذه المجالات والصور .

وعلى هذا ؛ فإن الحديث عن الأعلام إنما يهدف إلى مايأتي :

١ = إبراز النهضة العلمية والثقافية في العصور الزاهرة ومقارنتها بالظروف العلمية والثقافية السائدة في كل عصر .

٢ = الوفاء والعرفان للأعلام الذين أسهموا في نهضة أمتهم ، بمختلف مجالاتها .

٣ = توثيق سير أولئك الأعلام ليكون هذا التوثيق حافزاً يقظاً لتشجيع غيرهم على حذو حذوهم والاقتداء بهم .

٤ = توفير زاد معرفي وثقافي من المصادر العلمية الموثقة يضاف إلى رصيد المخزون الثقافي للأمة .

٥ = إبراز التفاعل من أولئك الأعلام مع متطلبات نهضة أمتهم بما يحقق أهداف عموم الرسالة الإسلامية .

٦ = تنشيط الحركة العلمية والثقافية في جانبها التتبعي ؛ لأن الحديث عن الأعلام سيدفع من يقرأ سيرهم إلى البحث والتنقيب عن عطاءاتهم وجهودهم ومواقفهم التي خلدها التاريخ عبر العصور المختلفة .

٧ = تفعيل الوظيفة الإثرائية لوسائل الإعلام في مجال الثقافة المحلية بمختلف أطيافها العلمية والثقافية .

وفي هذا المبحث سيكون حديثي عن نماذج للبيوتات المشتهرة بالعلم في مكة المكرمة ، مع التركيز على بعض الأعلام المتميزين في كل بيت من هذه البيوتات العلمية .

إلا أنه من أجل التوثيق العلمي ، ورغبة في عدم قطع متابعة القاريء لتسلسل الحديث عن الإعلام ، بما يحقق الترابط ، وإبراز المعطيات الثقافية في حياتهم ؛ فإنني سوف أشير هنا إلى بعض المصادر التي ترجمت لهؤلاء الأعلام وغيرهم من علماء مكة المكرمة ، مرتبة أبجدياً ، ومنها :

١ = أسد الغابة في معرفة الصحابة ، لابن الأثير ، نشر المكتبة الإسلامية .

٢ = الإصابة في تمييز الصحابة ، لابن حجر ، مطبعة السعادة بمصر، الطبعة الأولى ١٣٢٨هـ .

٣ = أعلام الحجاز ، لمحمد علي مغربي ، الطبعة الثانية ١٤١٥هـ .

٤ = أعلام المكيين من القرن التاسع إلى القرن الرابع عشر، لعبدالله المعلمي ، نشر مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي ، ط١، ١٤٢١هـ .

٥ = تراجم سيدات بيت النبوة ، لبنت الشاطيء ، نشر دار الكتاب

العربي في بيروت ، الطبعة الأولى ١٣٨٧هـ .
٦ = ترجمة الشيخ سليمان بن حمدان ، بخط تلميذه عبدالمحسن أبا نمي، نشر تلميذه عبدالله بن بخيت .
٧ = ثبت الأثبات الشهيرة ، لأبي بكر خوقير ، تحقيق راشد الغفيلي، ط١ ، ١٤٢٥هـ .
٨ = الدر الكمين بذيل العقد الثمين ، لعمر بن فهد الهاشمي ، بتحقيق معالي الدكتور عبدالملك بن دهيش ، نشر دار خضر في بيروت، ط١، ١٤٢١هـ .
٩ = الدر النضيد على أبواب التوحيد ، للشيخ سليمان الحمدان ، بتحقيق عبدالإله الشايع ، نشر دار الصميعي ، ط١ ١٤٢٦، ص ١٠.
١٠ = الدليل المشير إلى فلك أسانيد الحبيب البشير ، لأبي بكر بن أحمد الحبشي العلوي ، توزيع المكتبة المكية ، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ .
١١ = روضة الناظرين عن مآثر علماء نجد وحوادث السنين ، لمحمد ابن عثمان القاضي ، الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ .
١٢ = سير أعلام النبلاء ، للذهبي ، نشر مؤسسة الرسالة ، ط٢، ١٤٠٢هـ .
١٣ = سير وتراجم بعض علمائنا في القرن الرابع عشر ، لعمر عبدالجبار ، نشر تهامة ، الطبعة الثالثة ١٤٠٣هـ .
١٤ = العلماء والأدباء الوراقون في الحجاز ، لعبدالوهاب أبي سليمان، نشر النادي الأدبي بالطائف ، ط١ ، ١٤٢٣هـ .

١٥ = لمحات من الماضي ، لعبدالله خياط ، نشر دارة الملك عبدالعزيز، ط١ ، ١٤٢٥هـ .

١٦ = مجموعة مؤلفات الشيخ أبي بكر خوقير ، نشر جامعة أم القرى ، ١٤٢٦هـ .

١٧ = مصادر الدراسات الإسلامية ونظام المكتبات والمعلومات ، ليوسف المرعشلي ، نشر دار البشائر الإسلامية ط١، ١٤٢٧هـ .

١٨ = نشر الرياحين في تاريخ البلد الأمين (تراجم مؤرخي مكة وجغرافييها على مر العصور) ، لعاتق بن غيث البلادي ، نشر دار مكة ط ١، ١٤١٥هـ .

غير أنني أرى من الضرورة الملحَّة ؛ التنبيه إلى أن هناك عدداً كبيراً جداً من المصادر المتنوعة ، التي تحدثت عن بعض الأعلام التي أثَّرَت بعطاءاتها ثقافة مكة المكرمة ، وهذه المصادر ليست بالضرورة من المصادر المتخصصة في تراجم المكيين .

فقد تكون مخصصة لتراجم علماء المغرب ، أو نجد ، أو غيرهم ؛ إلا أن بعض الأعلام منهم جاور أو عمل في مكة المكرمة فتضمنت سيرته العلمية مايتعلق بثقافة مكة المكرمة .

وهذا الصنف من المصادر كثير ، وصعوبة البحث فيه ظاهرة ؛ لأن تناوله الحديث عن أولئك الأعلام المؤثرين في ثقافة مكة المكرمة يأتي عرضاً ، ولابد للوصول إليهم من قراءة كل المصدر ، وتتبع المكيين من بين تراجمه ، وهنا مكمن الصعوبة .

١ - في بيت النبي ﷺ : (١)

وليبدأ الحديثُ عن عَلَم في بيت من بيوت مكة المكرمة ليس ككل البيوت لأنه شهد مولد النور الحقيقي لأهل مكة وللبشرية جمعاء إنه بيت نبينا المصطفى محمد ﷺ

حيث دخلت إليه أم المؤمنين خديجة بنت خويلد ؛ لتسطر فيه صفحات من العطاءات والتضحيات ، التي تؤكد أثر المرأة الصالحة في سعادة البيت ، بل الأمة بأسرها .

هي خديجة بنت خويلد من أشهر نساء ورجال قريش ، أوتيت فهماً وحكمة ورزانة وحسن نظر وصواب تقدير للأمور ، فاشتغلت في التجارة .

وبعد وفاة زوجها رغبت عن الزواج من كبار أهل مكة ، والتفتت إلى تجارتها ترعاها وتنميها .

كانت تنتدب رجالاً للسفر في رحلتي الشتاء والصيف لجلب مقومات تجارتها لقاء أجر سخي ، وحين توسمت من محمد بن عبدالله نجابة ظاهرة وأمانة نادرة عرضت عليه أن يتولى إدارة تجارتها في تينك الرحلتين مقابل ضعف ماكانت تعطي غيره وأن تجعل غلامها ميسرة في صحبته عوناً له .

ولأن الفتى محمداً عاقلٌ فقد بادر إلى استشارة عمه أبي طالب في

---

١ - ابن حجر، الإصابة٤/٢٨١ ، و:د .بنت الشاطيء ، تراجم سيدات بيت النبوة ، ص٢٠٩ ومابعدها . .

الأمر فأشار إليه أن يجيبها إلى طلبها ففعل ، وأكرمه الله بربح وفير جداً لم يكن قد حققه الرجال الآخرون الذين كانت تنتدبهم خديجة في السنوات السابقة .

وحكى لها غلامُها ميسرة عجباً عن طريقة محمد في البيع والشراء ، ولعله أفاض مافي نفسه مما أعجبه من أمانة محمد وصدقه وبشاشته الآسرة وسماحته وحسن معاملته ، فأعجبت خديجةُ بمحمد وأشغلت تفكيرَها به وبمكارم أخلاقه ، ثم انتهى بها الأمر أن تبعث إليه من يخطبه لنفسها .

وعاد محمد لاستشارة عمه فبارك هذا الزواج لما يعرفه في خديجة من حسب وجمال ومكارم أخلاق وحكمة سبقت بها كثيراً من الرجال ، بل كانت تدعى قبل الإسلام الطاهرة .

وتزوجا محمد في الخامسة والعشرين وخديجة في الأربعين ورزقهما الله أولاداً بررة ثلاثة بنين القاسم والطاهر والطيب وهو عبدالله وأربع بنات زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة .

وكثرت الرؤى في حياة محمد ، فلجأ إلى التعبد في غار بقمة جبل حراء على الحنيفية دين إبراهيم عليه السلام حتى نزل عليه الوحي ، فطفق يخبر زوجته بماحدث له ، وهي تطمئنه وتخفف ماعلق به من همّ وخوف .

ثم تنطلق به إلى ابن عمها ورقة بن نوفل فتطلب منه أن يستمع إلى

مارآه محمد ، فيقول: هذا هو الناموس الذي نزل على موسى ، وإن قومك سيخرجونك .

وفي هذه الظروف العصيبة من حياة محمد كانت خديجة نعم الزوجة الحكيمة العاقلة الرزينة حاضرة أنى التفت يمنة أو يسرة ؛ لتؤانسَه.

وشدَّت أزرَه بقلبها وبلسانها وبعقلها وبعملها .

فقد آمن به قلبها من أول لحظة ، وكان صدرُها ملجأ حنان يفيء إليه محمد من خوفه أو تعبه.

وبلسانها كانت تعيد القول له : والله مايخزيك الله أبداً إنك لتصل الرحم وتحمل الكلَّ وتُكسِب المعدوم وتعين على نوائب الدهر .

وبعقلها حرصت على فعل كل مايطمئنه ويهدىء روعَه ويُذهِب خوفَه .

ثم لتتأكد من فهمها طلبت منه أن يخبرها إذا جاءه الملَك ، فأخبرها حينذاك ، فأقعدته على فخذها الأيسر وقالت : هل تراه فقال : نعم ، ثم أقعدته على فخذها الأيمن فقالت : هل تراه ، فقال : نعم .

ثم ألقت عليه خمارها أو درعها وسألته : هل تراه ، قال : لا ، لاأراه، فهتفت خديجة : ياابن العم اثبُت وأبشر ؛ فإنه ملَك وليس بشيطان ، ولو كان شيطاناً لما استحى .

وبعملها كانت خديجة وزير صدق وصدراً حنوناً يسكن إليه رسول الله ﷺ لتثبت أنها امرأة عظيمة .

لقد كانت الإسلام كله في بدايته ، حيث تخلت عن تجارتها وتفرغت لرعاية زوجها وللدين الحق الذي آمنت به .

وكان موقفُها عند حصار شعب بني عامر موقفاً خالداً ، فقد تركت بيتها كما تركت تجارتها ، ورضيت بالعيش مع زوجها المحاصر ثلاث سنوات تقريباً راضية مؤمنة ، بل إنها حُمِلت بعد فك الحصار إلى بيتها ؛ نتيجة المرض ، فحظيت من خير البشرية بالرعاية والشفقة والحنان في مرضها بما لم تحظَ به امرأة قط ، بل لم يحظَ به إنسانٌ قط .

وماتت خديجة بعد ذلك بقليل في شهر رمضان سنة عشر من البعثة وقد بلغت الخامسة والستين من سنوات عمرها ﵂ .

ولئن غيَّب الثرى جسدَها فإن ذكراها بقيت مشتعلة مضيئة في قلب زوجها الوفي ؛ عرفاناً بفضلها ووفاء لتضحياتها ، فكان يذكرها كثيراً ، ويكثر من الثناء عليها والدعاء لها .

بل إن هاتف ذكراها يدعوه إليها عند كل مايذكره بها ومن يذكّره بها ، بل إن حبه لخديجة جعله باراً بكل أقربائها وصديقاتها يُظهر لهم ولهن البهجة ودلائل الوفاء الأصيل .

بل إنه يذكرها دون أن يُذكّره أحد بها ، فكان إذا ذبح شاة ذكر صديقات خديجة ﵂ ، وقال ﷺ : أرسلوا إلى أصدقاء خديجة ، فقد كان قلبه ﷺ مليئاً بحبها ، وبالوفاء لها ، مكثراً من اللهج بالثناء عليها ، والدعاء لها .

وربما كان هذا منطلَق شرارة الغيرة عند نسائه الأخريات فذات يوم سمع النبي ﷺ صوت هالة أخت خديجة رضي الله عنها من بعيد فغشيته موجة فرح غامر وسرور طافح ، وقال مستبشراً قبل أن يراها : اللهم هالة .

وكان ذلك في بيت عائشة رضي الله عنها وهي الشابة التي لم يتزوج ﷺ بكراً غيرها وأحب نسائه إليه وابنة أحب الرجال إليه الصديق رضي الله عنه .

فهالها أن ترى النبي ﷺ هشَّ لامرأة غيرها وفي بيتها ، بل إنه بشّ لها وأظهر فرحه بها وترحيبَه بمقدَمِها ، فثارت غيرتها رضي الله عنها ، وأظهرت غضبها قائلة: (ماتذكر من عجوز من عجائز قريش أبدلك الله خيراً منها)

فكان جوابه ﷺ حازماً وانتصاراً لقيم الوفاء والعدل التي رباه ربه عليها فقال ﷺ : (والله ماأبدلني الله خيراً منها ، آمنت بي إذ كفرني الناس ، وصدقت بي إذ كذبني الناس ، وواستني بمالها إذ حرمني الناس، ورزقني الله منها الولد دون غيرها من النساء) [1]

هذه منزلة خديجة رضي الله عنها ، وهذه جوانب مضيئة من جوانب علمها وفقهها ، وهي ابنة مكة ، وعنوان التضحية فيها .

---

١ – ورد هذا الحديث بعدة صيغ في : البخاري ، صحيح البخاري مع الفتح ، مناقب الأنصار ، مناقب خديجة وفضلها ، نشر رئاسة الإفتاء بالرياض ١٣٧٩هـ ، ٧/١٣٣-١٣٤ .

٢ = في بيت العباس ﷺ : [١]

إنه بيت من البيوت الإسلامية المهمة ، التي خرّجت أعلاماً أفذاذاً ، كان لهم تأثير بليغٌ في تاريخ الإسلام ، إنه البيت العباسي ، في عصر النبي ﷺ .

نجد في قمته العباس بن عبدالمطلب ﷺ عم النبي ﷺ ، وأمه نتيلة بنت خباب بن كليب ، وهي أول من كست البيت الحرير والديباج .

شهد مع رسول الله ﷺ بيعة العقبة وكان مشركاً ، وكانت له الرئاسة في قريش ، وإليه كانت عمارة المسجد الحرام وسقايته .

أما السقاية فهي السقاية المعهودة .

وأما العمارة فإنه كان لايدع أحداً يسب في المسجد الحرام ولايقول فيه هجراً ؛ حيث اجتمع ملأ قريش وتعاقدوا على ذلك ، فكانوا عوناً له عليه .

روى عدداً من الأحاديث العظيمة .

ومن هذه الأحاديث قوله : أتيت رسول الله ﷺ فقلت علمني يارسول الله شيئاً أدعو به ، فقال ﷺ : (**سل الله العافية**) ثم أتيته مرة أخرى فقلت : علمني يارسول الله شيئاً أدعو به ؟

فقال ﷺ: (**ياعباس ياعم رسول الله سل الله العافية في الدنيا**

---

١ - الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، نشر مؤسسة الرسالة ، ط٢ ، ١٤٠٢هـ ٧٨/٢ ومابعدها ، و: ابن حجر، الإصابة٢٧١/٢و ٣٣٠/٢ ، و:ابن الأثير ، أسد الغابة ١٠٩/٣و١٩٢/٣.

والآخرة) [١]

ومنها قوله ﷺ : (ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً) [٢].

وكان شريفاً جميلاً أبيض بضاً معتدل القامة ، فلما قدم مع عمر ﷺ إلى الشام بادر البطارقة للسلام عليه ؛ ظناً أنه هو عمر .

وقد اشتهر عن العباس ﷺ حسن جوابه ، فعن مغيرة عن أبي رَزين قال قيل للعباس ﷺ : أنت أكبر أو النبي ﷺ ؟

فقال العباس ﷺ : هو أكبر ، وأنا ولدت قبله .

وكان جهوري الصوت جداً ، ولذا أمره النبي ﷺ أن يهتف يوم حنين ياأصحاب الشجرة ، وانتدبه ليبلغ الناس خطبته في حجة الوداع فيُسْمِعَ ﷺ من لم يسمعه النبي ﷺ .

وقال الضحاك الحِزامي : كان يكون للعباس الحاجة إلى غلمانه وهم بالغابة ، فيقف على سَلْع ، وذلك في آخر الليل فيناديهم فيُسْمعُهم .

وقال الأصمعي : كان للعباس راعٍ يرعى له على مسيرة ثلاثة أميال فإذا أراد منه شيئاً صاح به فأسمعه حاجته ، وكان شجاعاً ، ففي صحيح مسلم أن العباس ﷺ ثبت يوم حنين وقت الهزيمة آخذاً بلجام بغلة النبي ﷺ ، وثبت معه حتى نزل النصر .

---

١ - أحمد ، المسند ، بتحقيق الأرناؤوط ورفقاه ، نشر مؤسسة الرسالة ، ٣/٢٩٠ .

٢ - مسلم ، صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الإيمان ، نشر دار إحياء التراث العربي ، ط٢ ، ١٣٩٢هـ ، ٢/٢.

كما كان كريماً ، فعن سعيد بن المسيب عن سعد قال كنا مع النبي ﷺ في نقيع النخل ، فأقبل العباس رضي الله عنه فقال النبي ﷺ : **(هذا العباس عم نبيكم أجود قريش كفاً وأوصلها)** .

وروى ابن سعد في الطبقات عن مجاهد عن علي بن عبدالله بن العباس أن العباس أعتق سبعين مملوكاً عند وفاته .

ومن مناقبه المعدودة وفضائله المشهورة أن أمير المؤمنين عمرَ بنَ الخطاب رضي الله عنه استسقى فقال : اللهم إنا كنا إذا قحطنا على عهد نبيك توسلنا به وإنا نستسقي إليك بعم نبيك العباس فسُقوا [1]، وأقبل الناس على العباس يهنئونه ، وينادونه هنيئاً لك ياساقيَ الحرمين .

وفي الصحيح أن النبي ﷺ قال عن العباس رضي الله عنه : **(عم الرجل صنو أبيه)** ، ونهى عن إيذائه [2].

وفي ذلك قال حسان رضي الله عنه :

سأل الإمام وقد تتابع جدبنا * فسقى الغمامُ بغرة العباس *

عم النبي وصنو والده الذي * ورث النبيَ بذاك دون الناس*

أحيا الإلهُ به البلادَ فأصبحت * مخضرة الأجناب بعد اليأس *

وفي مستدرك الحاكم عن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ كان يجل العباس إجلال الوالد .

---

١ – البخاري ، صحيح البخاري مع الفتح ، مناقب الصحابة ، باب ذكر العباس ، ٧٧/٧ .

٢ – مسلم ، صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الزكاة ، ٥٧/٧.

وورد أنه ﷺ قال عنه : (**هذا بقية آبائي**) .

وقال ﷺ يوم بدر : (**من لقي العباس فلايقتله فإنه أُخْرِجَ كرهاً**) ؛ لأنه كان قد أسلم سراً ، وكاتب الرسول ﷺ بأخبار المشركين .

وقد صح الخبر بأن من كان بمكة من المسلمين كانوا يَتَقَوَّون به ، وأنه كان عوناً على إسلامهم ، وأنه استأذن للهجرة فقال له النبي ﷺ : مقامك بمكة خير ، أنت آخر المهاجرين كما أنني آخر الأنبياء ، فإن الله يختم بك الهجرة كما ختم بي الأنبياء .

وقالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها : مارأيت رسول الله ﷺ يجل أحداً مايجل العباس ، أو يكرم العباس .

ويوم أسر العباس رضي الله عنه في بدر سهر النبي ﷺ فقيل له : مايسهرك ؟ قال : (**أنين العباس**) فقام أحد الصحابة ، فأرخى وثاقه ، فقال ﷺ : (**مالي لاأسمع أنين العباس**) ، فقال الصحابي : أنا أرخيت وثاقه ، فقال ﷺ : (**افعل ذلك بكل الأسرى**) .

وكان الصحابة رضي الله عنهم يعرفون فضل العباس رضي الله عنه ويقدمونه ويشاورونه ويأخذون برأيه .

توفي وله ثمانٌ وثمانون سنة عام اثنين وثلاثين من الهجرة في شهر رجب أو رمضان ، وخلف من الولد عشرة ذكور سوى البنات ، وكانت جنازته مشهودة ، حَشَد الناسُ فيها حشوداً ظاهرة .

ونجد في هذا البيت المكي حِبرَ الأمة وترجمان القرآن عبدَالله بن

عباس رضي الله عنهما ، ولد بمكة المكرمة قبل الهجرة بثلاث سنوات حين حصار قريش للمسلمين في الشعب .

وجاء في الصحيح أن رسول الله ﷺ دعا له أن يعلمه الله الحكمة ، وفي رواية أن يفقهه في الدين ويعلمه التأويل ، وسماه جرجير حِبرَ العرب حين غزا مع عبدالله ابن أبي السرح أفريقيةَ .

وقال عبيد الله بن عبدالله ابن عباس كان ابن عباس قد فات الناس بخصال : بعلمِ ماسبق ، وفِقْه مااحتيج إليه من رأيه ، وحلمٍ ، ونسبٍ ، ونائلٍ ، ولقد كنا نحضر عنده فيحدثنا العشيةَ كلَّها في المغازي والعشيةَ كلها في النسب والعشيةَ كلها في الشعر .

وقال مجاهد رحمه الله : كان ابن عباس يسمى البحر لكثرة علمه ، وكان مسروقٌ رحمه الله يقول عنه : كنت إذا رأيت ابن عباس قلت أجملُ الناس ، فإذا نطق قلت : أفصحُ الناس ، فإذا تحدث قلت : أعلمُ الناس.

وعن طاووس قال : رأيت سبعين أو قال خمسة وسبعين من أصحاب رسول الله ﷺ إذا سئلوا عن شيء فخالفوا ابن عباس لايقومون حتى يقولوا له هو كما قلتَ أو صدقتَ .

وقال ابن أبي مليكة صحبت ابن عباس من مكة إلى المدينة فكان يصلي ركعتين فإذا نزل قام شطر الليل ويرتل القرآن حرفاً حرفاً ويكثر في ذلك من النشيج والنحيب .

وروي في أسباب ذهاب بصره أنه رأى جبريل عليه السلام مرتين

وأن النبي ﷺ قال له ﷺ : رأيتَ من يناجيني ؟

قال ابن عباس ﷺ : نعم ، فقال ﷺ : أما إنه سيذهب بصرك ، وفي رواية أنه ﷺ قال لأبيه العباس ﷺ : لن يموت ابنك يقصد عبدالله بنَ عباس حتى يذهب بصره ويؤتى علماً .

وفي سيرة ابنِ عباسٍ ﷺ مشوقاتٌ كثيرةٌ لطلب العلم فقد كان حريصاً على الاستزادة منه فها هو ﷺ يقول : قلت لرجل من الأنصار : هلم بنا نسأل أصحاب رسول الله ﷺ فإنهم اليوم كثير فقال لي : واعجباً لك أترى الناس يفتقرون إليك ؟

فترك ذلك وأقبلت أسأل ، فإن كان ليغلبني الحديث عن رجل فآتي بابه وهو قائل - أي نائم الظهيرة - فأتوسد ردائي على بابه تسفي الريح عليّ التراب ، فيخرج فيراني فيقول : يا ابن عم رسول الله ماجاء بك ؟ هلا أرسلت إلي فآتيك ، فأقول : أنا أحق أن آتيك ، فأسأله عن الحديث .

فعاش الرجل الأنصاري حتى رآني وقد اجتمع الناس يسألونني فقال : هذا الفتى - يقصد ابن عباس ﷺ - كان أعقلَ مني .

وقال كبار المهاجرين لأمير المؤمنين عمرَ بنِ الخطاب ﷺ : ألا تدعو أبناءنا كما تدعو ابن عباس ، فقال عمر ﷺ : ذاكم فتى الكهول ، له لسان سؤول ، وقلب عقول .

ولما أكثروا عليه قال لهم : سأريكم اليوم منه ماتعرفون به فضلَه ،

فسألهم ماتقولون في قوله تعالى (إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا)؟ فقالوا : بشارة من الله سبحانه وتعالى لنبيه ﷺ بالنصر والفتح وأمره إذا رأى الناس يدخلون في دين الله أفواجاً أن يحمده ويستغفره .

ثم التفت عمر ﷺ إلى ابن عباس ﷺ فقال : ماتقول ياابن عباس؟ فقال : أعْلَمَه متى يموت ، فقال عمر صدقت .

وعن سعد بن أبي وقاص ﷺ قال : مارأيت أحداً أحضر فهماً ولاألبُّ لبّاً ولاأكثر علماً ولاأوسع حلماً من ابن عباس ، لقد رأيت عمر يدعوه للمعضلات ، فيقولُ قد جاءت معضلة ، ثم لايجاوز قوله ، وإن حولَه لأهلُ بدر .

كان فهمُ ابن عباس ﷺ لدقائق الأمور ملفتاً للنظر ودليلاً على عمق حكمته وتبصرُه في الأمور فقد جاء رجل إلى أمير المؤمنين عمرَ بنِ الخطاب ﷺ يخبره عن الفتوح ، فسأله عن الناس ، فقال : أبشر ياأمير المؤمنين ، فقد قرأ منهم القرآنَ كذا وكذا ، فقال ابن عباس ﷺ : والله ماأحب أن يُسارعوا يومهم هذا في القرآن هذه المسارعة ، قال ابن عباس ﷺ فزبرني عمرُ ﷺ أي فزجره ، قال ابن عباس ﷺ فانطلقت إلى منزلي فقلت : قد كنت نزلت من هذا منزلة ، ومأاراني إلا قد سقطت من نفسه ، فاضطجعت على فراشي حتى عادني نسوة أهلي ، ومابي وجع، فبينما أنا كذلك إذ جاءني رجل ، فقال : أجب أمير المؤمنين فجئته ،

فإذا هو قائمٌ على الباب ينتظرني ، فأخذ بيدي ، ثم خلا بي فقال : ماكرهتَ مما قال الرجل آنفاً ؟

فقلت ياأمير المؤمنين إن كنتُ أسأتُ فأستغفرالله وأتوب إليه ، وأنْزِلُ حيث أحببتَ ، قال عمر ﷺ : لتَصْدُقَنِّي ولتُخْبِرَنِي ، قلت - أي قال ابن عباس - : متى يسارعوا هذه المسارعة فإنهم لن يفقهوا ، وإذا لم يفقهوا احتقّوا -أي تخاصموا فكل منهم يقول الحق معي - ومتى تنازعوا اختلفوا ومتى اختلفوا تقاتلوا .

فقال عمر ﷺ لِله أبوك ! لقد كنتُ أكتمها الناسَ حتى جئتَ بها . وكان ابن عمر ﷺما يقول لمن سأله عن شيء من القرآن : سَلِ ابن عباس فإنه أعلم من بقي بما أنزل اللهُ .

وهذه حادثةٌ تدل على سعة فقه ابن عباس ﷺ وسلامة صدره وحرصه على تعدي نفعِه ، وهومما يُبلَغ به السؤددُ حقاً ، ومما يحسن بكل مسلمٍ ومسلمة ولاسيما في هذا العصر أن يتأمله ويعمل به .

فقد شتمه رجل فقال ابن عباس ﷺ : إنك لتشتمني وفيَّ ثلاثٌ ؛ إني لأسمع بحاكم من حكام المسلمين يعدل في حكمه فأحبُّه ولعلي لاأقاضي إليه أبداً - أي لاأحتاج له أبداً - ، وإني لأسمع الغيث يصيب البلاد من بلاد المسلمين فأفرحُ به ومالي بها سائمةٌ ولاراعيةٌ ، وإني لآتي على آية من كتاب الله تعالى فوددت أن المسلمين كلهم يعلمون منها مثلَ ما أعلم .

ومما قاله فيه حسان ﷺ :

إذا ماابن عباسٍ بدا لك وجهُه * رأيت له في كل أقواله فضلا *

إذا قال لم يترك مقالاً لقائل * بمنتظمات لاترى بينها فصلا *

كفى وشفى مافي النفوس فلم يدع * لذي أَرَبٍ في القول جِدّاً ولاهَزْلا

ومسنده ﷺ ألف وستمائة وستون حديثاً منها خمسة وسبعون حديثاً متفقٌ عليه وتفرد الإمام البخاري له بمائة وعشرين حديثاً وتفرد الإمام مسلم له بتسعة أحاديث .

وذكر الإمام ابن حزم في كتابه (الإحكام في أصول الأحكام) أن فتاواه جمعت في عشرين كتاباً.

٣ - في بيت آل فهد :[١]

بيت من بيوت مكة العلمية المشهورة إنه بيت آل فهد الهاشميين ، حيث ترجع أصول هذا البيت الكريم إلى محمد بن الحنفية ثالث أولاد أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب ﷺ

فهذا البيت العلمي أسهم بجهد وافر في إثراء الحركة العلمية بمكة المكرمة ، وفي إثراء تاريخها في مختلف المجالات العلمية ، ولاسيما الحديث والتاريخ والأدب .

وقد اشتهر من أهل هذا البيت العلمي أربعة حفاظ هم : التقي بن فهد ، وابنه النجم بن فهد ، وابنه العز بن فهد ، وابنه جار الله بن فهد .

قال الشيخ الكتاني : وأنت إذا تأملت قلَّ أن تجد في بيت من بيوت الإسلام أربعة من الحفاظ في سلسلة واحدة من بيت واحد ، يتوارثون الحفظ والإسناد ، غير هذا البيت العظيم .

فهؤلاء الفهود الأربعة كانوا نجوماً من نجوم مكة المكرمة ، يستضاء بها ، أولهم أبوهم : تقي الدين محمد بن فهد ، الذي ذاع صيته بين علماء عصره ، ونال ثناءهم وهم يتداولون كتابه (نهاية التقريب وتكميل التهذيب بالتهذيب) إضافة إلى كتبه الأخرى (البدور الزواهر مما للمختار وعترته من المفاخر) و(الدرر العوالي والجواهر

---

١ - الدر الكمين بذيل العقد الثمين ، لعمر بن فهد الهاشمي ، بتحقيق معالي الدكتور عبدالملك بن دهيش ، ١/٥ ، ومابعدها - مقدمة المحقق - .

الخوالي)و(الدرر الفائقة والأخبار الرائقة)و(المصابيح المشرقة الزاهرة في معجزات المصطفى ومناقب عترته الطاهرة) و(عمدة المنتحل وبلغة المرتحل) وتوجد منه نسخة في مكتبة شستربيتي بدبلن الإيرلندية رقمها ٣٤٧٠و(لحظ الألحاظ)وهو ذيل على طبقات الحفاظ للذهبي .

وكانت وفاة تقي الدين ابن فهد بمكة المكرمة عام ثمانمائة وواحد وسبعين للهجرة .

والثاني من بيت آل فهد العز عبدالعزيز بن محمد بن فهد الذي تخرج على عدد من علماء مكة المكرمة والواردين إليها ، كما رحل إلى عدد من البلدان لطلب العلم والاستجازة من مرويات علمائها .

وله عدد من الكتب ومنها (الترغيب والاجتهاد في الباعث لذوي الهمم العلية على الجهاد) ، و(بلوغ القرى لتكملة إتحاف الورى) ، و(تاريخ مكة) رتبه على السنين من سنة ثمانمئة وثنتين وسبعين للهجرة إلى عصره ، و(غاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام) عن السلاطين والأمراء الذين تولوا إمرة مكة المكرمة حسب سنوات ولايتهم ، ومنه نسخة مخطوطة بمكتبة برلين برقم ٩٧٥٥، و(نزهة ذوي الأحكام بأخبار الخطباء والأئمة وقضاة بلد الله الحرام) ، و(معجم شيوخ إبراهيم بن محمد بن خليل الطرابلسي الحلبي)

والثالث من بيت آل فهد جار الله بن فهد وهو ابن العز عبدالعزيز ابن فهد ، وحفيد تقي الدين بن فهد .

وله تآليف كثيرة منها (بلوغ الأرب بمعرفة أي الأنبياء من العرب) ومنه نسخة بمكتبة كمبردج برقم١٨٥ و(تحفة الطائف في فضائل الحبر ابن عباس ووج والطائف) ومنه نسخة في مكتبة الأوقاف ببغداد برقم٢/ ٤٧٩٦و(نشر اللطائف في قطر الطائف) ، ومنه نسخة في المكتبة ذاتها و(ذيل المنى بذيل بلوغ القرى لتكملة إتحاف الورى) وهو ذيل على كتاب والده بلوغ القرى ، وقد أرَّخ فيه لمكة المكرمة من شهر ذي الحجة عام تسعمائة وثلاث وعشرين إلى نهاية جمادى الثانية سنة تسعمائة وتسع وأربعين للهجرة .

ودرة التاج في هذا البيت العلمي الكريم النجم عمر بن محمد بن محمد بن أبي الخير محمد بن محمد بن محمد بن فهد الهاشمي المالكي ، ولد سنة اثنتي عشرة وثمانمائة بمكة المكرمة ، ونشأ بها وحفظ القرآن الكريم في حرمها الشريف ، كما حفظ بعض كتب الحديث ومختصر الخرقي على مذهب الإمام أحمد والمنهاج للنووي على المذهب الشافعي وألفية ابن مالك في النحو وألفية الحديث للعراقي .

وقد بلغ عددُ شيوخه الذين استجاز مروياتهم خمسمائة شيخ ، مما جعله يؤلف معجماً مستقلاً لشيوخه وهو مطبوع بتحقيق محمد الزاهي.

أثنى على النجم ابن فهد شيوخُ عصره ممن يشار إليهم بالعلم ويعول عليهم في التزكية ، ووصفوه بما يرفع شأنه ويعلي قدره .

قال عنه الحافظ محمد بن أبي بكر القيسي : الشيخ العالم الفاضل

البارع المحدث المفيد الرحالة سليل العلماء الأماثل فخر الفضلاء الأفاضل .

وقال البرهان الحلبي : قرأ علي شيئاً كثيراً جداً واستفاد ، وكتب الطباق والأجزاء ودأب في طلب الحديث ، وقراءته سريعة وكذا كتابته.

وقال عنه زين الدين رضوان العقبي : نشأ في سماع الحديث بمكة على مشايخها والقادمين إليها من البلاد ثم رحل إلى الديار المصرية فأكثر بها من العوالي وغيرها وساق أخبار رحلته .

وقال عنه السخاوي : صاحبنا بل مفيدنا شيخ الجماعة النجم والسراج أبو القاسم عمر أخذ عمن هو مثله بل وممن دونه ولم يتحاشَ في ذلك شيئاً .

ووصفه بصدق اللهجة وعلو الهمة ومزيد النصح وطرح التكلف والعفة والشهامة والإعراض عن بني الدنيا وبَذْل نفسه وفوائده وكتبه وإكرامه للغرباء والوافدين إلى مكة ، وأن محاسنه جمة .

وكتب إليه الحافظ شيخ الإسلام شهاب الدين أحمد بن حجر : وقد كثر شوقنا إلى مجالستكم وتشوقنا إلى متجدداتكم ويسرنا مايبلغنا من إقبالكم على هذا الفن الذي باد حُمَّالُه وحاد عن السنن المعتبر عمالُه، ووصفه بأنه محدث كبير من أهل البيت النبوي نسباً وعلماً جَدَّ واجتهد في تحصيل الأنواع الحديثية النبوية .

ووصفه التقي المقريزي فقال: صاحبنا المحدث الفاضل عمر الهاشمي.

وقال عنه وعن أبيه التقي ، إنهما محدثا الحجاز كثيرا الاستحضار ، وأرجو أن يبلغ عمرُ في هذا العلم مبلغاً عظيماً لذكائه واعتنائه بالجمع والسماع والقراءة ، بارك الله له فيما آتاه .

ومن أهم كتب النجم (إتحاف الورى بأخبار أم القرى) رتب تاريخ مكة المكرمة على السنين كمنهج ابن الأثير والطبري وغيرهما من العام الأول الهجري حتى سنة وفاته خمس وثمانين وثمانمائة للهجرة .

وكانت له عناية بكتب التراجم فإضافة إلى تأليفه معجماً بشيوخه ومعجماً لأبيه فقد ألَّف (بذل الجهد فيمن سمي بفهد وابن فهد) و(التبيين في تراجم الطبريين) و(تذكير الناسي بأولاد أبي عبدالله الفاسي)و(تراجم شيخنا سارة بنت العز بن جماعة) و(ترتيب تراجم الحلية) و(ترتيب ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب) و(ترتيب تذكرة الحفاظ للذهبي) و(ترتيب ذيل تذكرة الحفاظ)وهو لحظ الألحاظ لوالده و(السر الظهيري بأولاد أحمد النويري) و(غاية الأماني في تراجم أولاد القسطلاني) و(المشارق المنيرة في ذكر بني ظهيرة)

كما ألّف كتباً عن المؤاخى بينهم والمخضرمين والمدلسين والمغير اسمهم ، وله (ترتيب تاريخ الأطباء) و(اللباب في الألقاب) و(نزهة العيون فيما تفرق من الفنون)

ويعد كتابه الثمين (الدر الكمين بذيل العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين) من المراجع المهمة جداً في تاريخ مكة المكرمة ، وقد طبع لأول

مرة بتحقيق الدكتور عبدالملك بن عبدالله بن دهيش وعلى نفقته الخاصة عام ١٤٢١هـ ، أرخ فيه النجم ابن فهد لرجالات مكة المكرمة خلال أكثر من نصف قرن ، وجعله ذيلاً على كتاب شيخه تقي الدين الفاسي (العقد الثمين) ، وترجم فيه لعدد كبير من أعيان مكة المكرمة وأمرائها وعلمائها وقضاتها وأدبائها وظرفائها وسكانها ومن ورد عليها من غير أهلها وأقام فيها مدة من الزمن ومن له عناية بعمارتها وببيتها العتيق .

يقول الدكتور ابن دهيش عنه : ويروعك عناية النجم بذكر مسموعات من يترجم له وتقصّيه إياها ودقته في تتبعها ، فتراه يرتب مسموعات المترجم له على سني عمره ، فيذكر أنه سمع في السنة الحادية عشرة من عمره كذا وكذا وفي السنة الثانية عشرة كذا وكذا وهكذا ، وإن كان هناك فوت في المسموعات ذكره بدقة متناهية ، فيذكر عدد الأفوات إن تيسر ، وموضعها إن كان من أول الكتاب أو آخره .

وقد رتب التراجم على حروف المعجم إلا أنه قدم المحمدين وعلل ذلك بشرف هذا الاسم ، كما أن حجم التراجم الواردة في الكتاب يختلف طولاً وقصراً حسب منزلة المترجم له أو توافر المادة العلمية عنه.

وبالجملة أقول : كان النجم عالماً فذاً وأديباً جهبذا أعطى صورة حقيقية عن الحياة العلمية في مكة في عصره ، وهي بيئة اتصفت بالجد في الطلب وتنوع المعارف وتعدد الشيوخ، إلا أنها في الوقت ذاته لم تخلُ من بعض البدع وصور الدروشة كما هو واضح من كتابه الدر الكمين .

٤ - في بيت آل الشيخ بمكة : [1]

بيت آل الشيخ بمكة المكرمة نجد فيه الشيخ سليمان بن عبدالله بن محمد بن عبدالوهاب آل الشيخ محدث مفسر فقيه أصولي مجتهد ثقة .

كان عالماً نحريراً ونابغة وآية في الحفظ والذكاء ومحباً للأدب ومنشداً للشعر ، فقد أثر عنه عدة أبيات في تقريظ كتاب كشف الشبهات لجده الإمام محمد بن عبدالوهاب .

ولد سنة مائتين وألف للهجرة في مدينة الدرعية التي كانت آنذاك زاخرة بالعلماء والحفاظ المقيمين فيها والوافدين إليها .

يعدُّ تاج عصره ؛ نظراً لسعة علمه وتنوع معارفه بين التفسير والحديث والفقه والأصول والفرائض وغيرها ، ولأنه ضُرِبَ له بسهم وافر في الشهامة والجود .

وكان حسن الخط ليس في زمنه من يكتب بالقلم مثله ، كما أنه لم يُرَ في عصره مَن قَارَب الكمال في العلم والصفات الحميدة مثله ، برغم صغر سنه .

تلقى العلم من والده الشيخ عبدالله بن محمد بن عبدالوهاب ومن عمه الشيخ حسين بن محمد بن عبدالوهاب ومن الشيخ حمد بن ناصر ابن معمر ومن الشيخ عبدالله بن فاضل ومن الشيخ عبدالرحمن بن خميس ومن الشيخ حسين بن غنام ومن الشيخ محمد بن علي الغريب .

- عمر عبدالجبار ، سير وتراجم ، ١٧٦ ، و: عبدالله المعلمي ، أعلام المكيين ١/٨-١١.

وأجازه الشوكاني والشريف حسن بن خالد الحسني المتوفى عام أربعة وثلاثين ومائتين وألف للهجرة .

آلت إليه معرفةُ الحديث صحيحه وحسنه وضعيفه ومعرفةُ رجالِه حتى كان يقول : (أنا برجال الحديث أعرف مني برجال الدرعية)

ذكر ابن بشر في كتابه عنوان المجد أن الإمام سعود بن عبدالعزيز عينه قاضياً بمكة المكرمة عندما آلت إليه أمورُها ، وأخذ من علمائها ، وكانت له دروس علمية فيها .

وكانت له جهود دعوية واضحة ، ولاسيما إنكارُ المنكرات وكان حازماً في ذلك أشد الحزم ، فلايتعاظم رئيساً لرئاسته ، ولايستصغر ضعيفاً لضعفه ، ولذا أحضره إبراهيم باشا ابن محمد علي باشا ، وأظهر بين يديه آلات اللهو والمنكر إغاظة له ، ثم أخرجه إلى المقبرة ، وأمر جنده أن يطلقوا عليه النار جميعاً ، فمزقوا جسده رحمه الله ، وكَتَبَه في زمرة الشهداء .

من كتبه أوثق عرى الإيمان ، وله التوضيح عن توحيد الخلائق في جواب أهل العراق ، ردَّ به على عبدالله أفندي الراوي خطيب مسجد سليمان باشا ، وله تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد ، وهو العمدة في شرح كتاب التوحيد ، وماجاء بعده من الشروح كلها عيال عليه ، لكنه لم يكمله ، وله تذكرة أولي الألباب في طريقة الشيخ محمد ابن عبدالوهاب ، وله رسالة في عدد الجمعة لم ينسج على عنوانها أو

منوالها ، وله حاشية على المقنع في ثلاثة مجلدات ، وله فتاوى كثيرة طبعت ضمن مجموع فتاوى أئمة الدعوة .

ومن الأعلام المشتهرين من بيت آل الشيخ في مكة المكرمة الشيخ عبدالله بن حسن بن حسين بن علي بن حسين بن محمد بن عبدالوهاب آل الشيخ .

حفظ القرآن وجوده على يد الشيخ علي بن داود في الدرعية ، وأخذ العلم عن والده وعن الشيخ سعد بن حمد بن عتيق والشيخ عبدالله بن عبداللطيف والشيخ محمد بن محمود والشيخ حمد بن فارس والشيخ إسحاق بن عبدالرحمن .

وكان منذ نشأته قائماً بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأوذي وهدد بسبب ذلك .

لازم الإمام عبدالرحمن بن فيصل آل سعود والد الملك عبدالعزيز وعمل إماماً لمسجده .

أوفده الملك عبدالعزيز لدعوة بعض القبائل وإرشادهم .

ومما عرف عنه حزمه ، فقام بأعباء ماأسند إليه من وظائف بهمة ونشاط وإخلاص لاتأخذه في الله لومة لائم ، كما عرف عنه أنه لايحابي ولايجامل أحداً ، إلى جانب رقة قلبه ، وحرصه على التثبت قبل إصدار الأحكام .

بلغه مرة أن طالباً بمدرسة البعثات فاه بكلمة يشم منها رائحة الإلحاد

والزيغ ، فثارت ثائرته وغضب غضباً شديداً ، فطلب الطالب للتحقيق معه ، فلما حضر بين يديه وعرف صِغَرَ سنه وجهلَه بما نطق بشٍّ به ، ونصحه وحذره عاقبةَ مانطق به ، وعفا عنه .

اشتهر عنه بشاشته ولطفه ورفقه بالمخالف والمخطيء وتقديره للعاملين معه ومسارعته لمكافأتهم .

عينه الملك عبدالعزيز قاضياً لجيوشه ، ولما دخل مكة المكرمة سنة ثلاث وأربعين وثلاثمائة وألف للهجرة عينه إماماً وخطيباً للمسجد الحرام .

وكان يلازم الصف الأول في المسجد الحرام فيحضر للصلاة قبل الأذان يتلوالقرآن برغم قرب منزله من المسجد الحرام ، حيث يشاهد الكعبة منه .

وكان محباً للعلماء ومجالستهم حريصاً على طلبة العلم وتفقيههم .

ثم ولاه الملك عبدالعزيز سنة ست وأربعين وثلاثمائة وألف منصب رئيس القضاة إلى جانب ممارسته الإمامة والخطابة بالمسجد الحرام وفي عرفة .

وعهد إليه الملك عبدالعزيز إضافة إلى ذلك رئاسة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والإشراف على أئمة المساجد ، والإشراف العام على شؤون المسجد الحرام ، ومتابعة الوعاظ والمدرسين فيه .

كما عهد إليه توزيع الكتب التي تطبع على نفقة الملك عبدالعزيز

لخدمة طلبة العلم .

وكانت له حلقة تدريس مشهودة يزينها سمتُ علماء السلف الذي اشتهر به الشيخ في مدرسته بداره المطلة على الحرم المسماة الداوودية وأخذ عنه العلم فيها خلق كثير .

ومن فضلاء مكة الذين نهلوا من علمه الشيخ محمد عبدالظاهر أبو السمح إمام الحرم المكي حيث قرأ عليه في التوحيد وأصول الدين والعقائد ، والشيخ محمود شويل الذي سمع منه قراءات كثيرة في التوحيد والحديث والتفسير ، والشيخ سليمان أباظه الأزهري الذي قرأ عليه فتح المجيد من أوله إلى آخره ، والشيخ علي بن محمد الهندي الذي قرأ عليه كتباً كثيرة ، كما تعلم على يديه الشيخ علي بن قائد من أهل الطائف .

من أقواله : الدنيا جيفة فينبغي ألا تدخل قلب المؤمن فتلهيه عن طاعة ربه ، أو يدخلَه الشيطان فيخدَعَه أو يغرَّه بها .

وفي آخر عمره أصيب إصابة بالغة فطلب منه ولده السفر للعلاج ، فامتنع ، وقال : لن أخرج من مكة إلا إلى القبر .

ظهرت عنايته الشديدة بكتب العقيدة ، حيث شارك في تحقيق وتصحيح شرح الطحاوية وحقق وصحح كتاب السنة وحقق وصحح اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية وله العقيدة السلفية للفرقة الناجية المهدية .

انتقل إلى الرفيق الأعلى يوم السبت السابع من شهر رجب عام ثمانية وسبعين وثلاثمائة وألف للهجرة ، فصلي عليه بالمسجد الحرام وكانت جنازته مشهودة وتبعه المشيعون إلى المقبرة وكان الحزنُ عليه عظيماً جداً .

ولأحمد بن إبراهيم الغزاوي قصيدة جميلة في رثاء الشيخ عبدالله .

ومن أعلام آل الشيخ بمكة المكرمة محمد بن عبدالله بن عبداللطيف ابن عبدالرحمن بن حسن آل الشيخ .

حفظ القرآن الكريم مع التجويد منذ سن مبكرة ، وتلقى العلم عن عمه محمد بن عبداللطيف آل الشيخ ، وعمه عمر بن عبداللطيف والمفتي العام للمملكة ورئيس القضاة في وقته الشيخ محمد بن إبراهيم .

وكان ميالاً إلى كتب السيَر والمغازي والأدب ، مكباً على مطالعتها.

وعرف عنه أنه كان جواداً سخياً حسن الخلق متواضعاً جداً ، مكثراً من الحج والعمرة .

وكانت له جهود علمية في المسجد الحرام حيث جاور زمناً ثم انتقل إلى جدة حيث توفي عام ستة وثمانين وثلاثمائة وألف للهجرة ودفن بمكة المكرمة.

ومن أعلام آل الشيخ بمكة المكرمة محمد بن عبدالله بن حسن بن حسين آل الشيخ .

نشأ نشأة صالحة وعلمية في بيت والده الشيخ عبدالله بن حسن حيث

حفظ القرآن الكريم مجوداً ، وقرأ على والده مبادىء العلوم المختلفة ، ثم رحل معه إلى مكة المكرمة ولازمه ملازمة تامة .

واستفاد من علماء البيت الحرام ومنهم الشيخ بهجت البيطار والشيخ محمد عبدالرزاق حمزة والشيخ محمد بن عبدالعزيز بن مانع .

كما تكونت لديه ثروة واسعة في الأدب نظراً لشيوع الثقافة الأدبية في البيئة العلمية في الحجاز آنذاك .

ولحرصه على المطالعة بدون ملل انتدبه والده مع المرشدين لبث الدعوة إلى الله ، ولإرشاد الناس إلى أمور دينهم .

ثم عُيِّن مديراً للإشراف الديني بوزارة المعارف ، ثم رئيساً للهيئة العليا للتربية الإسلامية بالمنطقة الغربية .

عرف بحسن أخلاقه وطيب تعامله وصفاته الحميدة ، وكان من أعلام مكة المكرمة الذين أثروا حياتها العلمية والثقافية .

٥ - في بيت المشاط : [١]

بيت من البيوت العلمية في مكة المكرمة اشتهر بأعلامه المتميزين إنه بيت المشاط ونذكر منه الشيخ حسن بن محمد المشاط .

ولد بمكة المكرمة في الثالث من شهر شوال سنة سبع عشرة وثلاثمائة وألف للهجرة ، طويل القامة شديد الاسمرار واسع العينين تشع من وجهه علامات الذكاء وتنطق سيماه بالزهد .

في السابعة من عمره التحق بالكتَّاب ، فانكب على القرآن الكريم قراءة وتجويداً برعاية الشيخ محمد السنَّاري والشيخ عبدالله حمدوه السنَّاري .

كما تعلم مباديء القراءة والكتابة وشيئاً من العلوم الأخرى كالإملاء والحساب على يد الشيخ علي حسن الليثي .

ثم التحق سنة تسع وعشرين وثلاثمائة وألف للهجرة بالمدرسة الصولتية بمكة المكرمة التي أسسها الشيخ العثماني سنة ثنتين وتسعين ومائتين وألف للهجرة وتخرج منها سنة ست وثلاثين وثلاثمائة وألف.

ونظراً لتفوقه طلبت منه إدارة المدرسة الانضمام إلى هيئة التدريس بها ، فأصبح من مدرسيها منذ ذلك التاريخ .

وبالإضافة إلى ذلك حرص الشيخ حسن المشاط على تنمية موارده العلمية وتنويعها ، فكان يترقب العلماء الوافدين إلى مكة المكرمة من

---

١ - عبدالله المعلمي ، أعلام المكيين ٢/٨٨٥-٨٨٩ ، و: محمد علي مغربي ، أعلام الحجاز ٣/٣٠٩-٣٤٣.

أقطار العالم الإسلامي ، ولاسيما المشهورون منهم ، فيأخذ العلم عنهم.

ومن هؤلاء الشيخ حمدان بن سيدي حمد الجزائري الونيسي القسنطيني ، الذي أخذ عنه عام سبعة وثلاثين وثلاثمائة وألف للهجرة، وقرأ عليه أول مختصر خليل ، وانقطع له أيام التشريق بمنى وبعد النزول منها ، فانتفع منه بالشيء الكثير .

ومنهم الشيخ محمد عبدالله زيدان الذي عُرف بمحبته للركون إلى الخلوة ، فكان يمنعه من الدخول إليه أحياناً لكثرة مراجعته له .

وممن أخذ عنهم الشيخ حسن المشاط خارج حجرات الدراسة الرسمية الشيخ عبدالرحمن دهان والشيخ عيسى رواس والشيخ محمد عبدالحي الكتابي وهو من أكبر علماء الحديث في زمنه والشيخ محمد حبيب الله الشنقيطي والشيخ عمر حمدان المحروسي والشيخ محمد الخضر ابن مايابي الجكني .

وقد حظي الشيخ حسن المشاط بإجازات منهم ومن عدد من العلماء غيرهم ، فكان ذلك مؤهلاً له كي يتبوأ مقعد التدريس في الحرم المكي الشريف ، وكانت له حلقة مستقلة بروادها وعلومها انقطع لها بكلِّيَته محتسباً الأجر من الله عز وجل ومصراً على الاستمرار فيها حتى أيام الموسم حين يشتد الزحام .

كان الشيخ حسن المشاط بكر والده الشيخ محمد المشاط الذي نذر لله إن جاء بكره ولداً أن ينشِّئه عالماً يقف حياته على خدمة الحرم .

كما أنه بلغ في الفقه وأصوله شأواً بعيداً وكتابه (الجواهر الثمينة في أدلة عالم المدينة في علم أصول الفقه) يدل على أنه كان من المتمكنين في فقه الإمام مالك فلاعجب بعد ذلك أن يكثر طلابه .

يقول الدكتور عبدالوهاب أبو سليمان عند تحقيقه كتاب الجواهر الثمينة : من الصعب جداً حصر الطلابِ الذين تلقوا العلم على يد فضيلة الشيخ المشاط ، فقد تخرج بفضيلته أعداد كبيرة ، تسنموا مناصب علمية كبيرة في الجزيرة العربية والأقطار الإسلامية .

فمن هؤلاء بالحرمين الشريفين العلامة الفقيه محسن بن السيد علي المساوي المدرس بالمدرسة الصولتية ومؤسس دار العلوم الدينية بمكة المكرمة عام ثلاثة وخمسين وثلاثمائة وألف للهجرة والشيخ محمد عبدالكريم السنّاري مدير المعهد العلمي للمعلمين بالمدينة المنورة ، ومنهم الشيخ زكريا بن عبدالله بيلا المدرس بالمسجد الحرام وعضو إدارة الحرم المكي وصاحب التآليف الدينية ، وكذلك الشيخ علي بكر سليمان الكنوي المدرس بالمسجد الحرام وبكلية الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة أم القرى ، والشيخ عثمان بن محمد سعيد تنكل المدرس بالمدرسة الصولتية ، ومقريء مكة الشهير الشيخ زين عبدالله باويان وأعداد أخرى يضيق عن سردها المقام .

ثم ذكر الدكتور أبو سليمان عدداً من تلاميذ الشيخ المشاط في أندونيسيا وماليزيا وفي مقدمتهم العلامة الشيخ محمد زين الدين

الأنمفتاني صاحب المؤلفات البديعة ورائد نشر الدعوة الإسلامية بأندونيسيا وماحولها ، الذي ذكر أن الشيخ حسن المشاط كان له فضل التوجيه والتأييد في تأسيسه مدرسة نهضة الوطن الدينية الإسلامية ومدرسة نهضة البنات الدينية الإسلامية وفروعهما بأندونيسيا التي تعدت أربعمائة مدرسة متنوعة المراحل والعلوم .

كما ذكر الدكتور أبو سليمان عدداً آخر من تلاميذ الشيخ المشاط في الجزر الأندونيسية ، وأشار إلى تبوئهم المراكز الدينية العالية وتأسيسهم المدارس هناك .

عالم مكة المكرمة الشيخ حسن المشاط الذي تربى في بيت علم من بيوت مكة المكرمة حَفَلت حياته بصور مضيئة للجهود العلمية والدعوية والتربوية أيضاً .

الشيخ حسن المشاط عُرف بعزوفه عن الوظائف الحكومية ، لكنه لم يسلم منها لما اشتهر من فضله وعلمه ، فعين قاضياً في المحكمة الشرعية بمكة المكرمة إلا أن عمله هذا لم يشغله عن التدريس في الحرم المكي وفي المدرسة الصولتية لمدة ثلاثين عاماً .

وفي عام واحد وستين وثلاثمائة وألف صدر الأمر الملكي الكريم بتعيينه عضواً في هيئة التمييز ، ثم عين وكيلاً لرئيس المحكمة الشرعية بمكة المكرمة سنة خمس وستين وثلاثمائة وألف للهجرة .

وفي عام اثنين وسبعين وثلاثمائة وألف للهجرة صدر الأمر الملكي

بتعيينه عضواً في مجلس الشورى ، إلا أن عضويته لم تدم طويلاً حيث طلب الشيخ عبدالله بن حسن آل الشيخ رئيس القضاة آنذاك إعادة الشيخ المشاط إلى القضاء للحاجة إلى خبراته وعلمه فصدر أمر ملكي بتعيينه معاوناً لرئيس المحكمة الشرعية الكبرى بمكة المكرمة حتى استقال في العاشر من شهر شوال عام خمسة وسبعين وثلاثمائة وألف لينقطع للعلم وطلابه .

وقد أورد الدكتور أبو سليمان قضية تدل على سعة علم الشيخ المشاط وحسن قضائه في القضية رقم ثمان وعشرين وثلاثمائة لعام ثمانية وستين وثلاثمائة وألف للهجرة وملخصها أن رجلاً طلق زوجته فادعت أنها حامل منه فأجرى عليها النفقة حتى أتمت سنة فارتاب منها وقطع النفقة عنها إلا أنها لم تقبل بالزواج من غيره لتأكدها من الحمل وبعد خمس سنين وتسعة أشهر وضعت الزوجة ولداً فأنكره الزوج وأقام دعوى ضد مطلقته لنفي الولد فعرضت القضية على الشيخ المشاط الذي حكم بإثبات نسبة الولد لأبيه فاعترض الزوج ورفع الأمر للملك عبدالعزيز فأمر بتأليف لجنة علمية برئاسة الشيخ محمد بن مانع لتدقيق الحكم ، وكان غالب أعضاء هذه اللجنة يعارضون حكم الشيخ المشاط إلا أنه أصر على حكمه لاقتناعه بصحته .

ورفع الأمر للملك الذي أحاله إلى مفتي عام المملكة آنذاك الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ ؛ لدراسة القضية وإبداء الرأي الفصل فيها ،

فأيد الشيخُ محمد بن إبراهيم حكمَ الشيخ المشاط بحيثيات من أهمها أن مسألةَ مدة الحمل موضوعُ خلاف بين العلماء وأنه لم يثبت في كتاب الله عز وجل ولافي سنة رسوله ﷺ تحديدٌ لأكثر مدة الحمل بأربع سنين بل إن الكتاب والسنة يشهدان بنقيض ذلك فقد أطلقا ولم يحددا أكثر مدة الحمل ، فمن حدده فقد قصد إلى تقييد ماأطلقه الله تعالى ورسوله ﷺ بغير حجة شرعية تصلح لتقييد المطلق .

كما أن المرأة التي تتجاوز مدة الحمل الطبيعي وهو تسعة شهور إلى عامين أو ثلاثة أو أربعة يجوز أن يركد الجنين في بطنها إلى أكثر من ذلك.

للشيخ المشاط عدة مؤلفات ، فإضافة إلى كتابه الجواهر الثمينة السابق ذكره له كتاب في السيرة هو (إنارة الدجى في مغازي خير الورىﷺ) وله كتاب في مصطلح الحديث عنوانه (رفع الأستار عن محيا مخدرات طلعة الأنوار في علم آثار النبي المختارﷺ) وفي العلم ذاته له كتاب (التقريرات السنية في شرح المنظومة البيقونية) وله في علم الفرائض كتاب(التحفة السنية في أحوال الورثة الأربعينية) وله كتاب(إسعاف أهل الإيمان بوظائف شهر رمضان) وله كتاب(إسعاف أهل الإسلام بوظائف الحج إلى بيت الله الحرام) وله كتاب (أربعون حديثاً في الترغيب والترهيب)

ومن كتبه الأخرى : (نصائح دينية ووصايا هامة) و(بغية المسترشدين بترجمة الأئمة المجتهدين) و(حكم الشريعة المحمدية في تعليم المسلمين

أولادهم بالمدارس الأجنبية) و(الحدود البهية في القواعد المنطقية) و(تعليقات شريفة على لب الأصول) و(الإرشاد بذكر بعض مالي من الإجازة والإسناد)

وجميع كتب الشيخ المشاط إما مطبوعة عدة طبعات أومتداولة بين العلماء وطلبة العلم .

في الثالث والعشرين من شهر رمضان عام تسعة وتسعين وثلاثمائة وألف للهجرة وبعد أن ختم القرآن في صلاة التراويح تلك الليلة في مسجده المجاور لمنزله بمكة المكرمة أصيب بجلطة في الدماغ حتى فاضت روحه إلى بارئها في السابع من شهر شوال عام تسعة وتسعين وثلاثمائة وألف للهجرة فشيع في جنازة مهيبة وأديت عليه صلاة الجنازة في مكة المكرمة كما أديت عليه صلاة الغائب في معظم أنحاء أندونيسيا لكثرة تلاميذه ومحبة الناس له هناك .

٦ - في بيت الخوقير : [١]

في هذا البيت نتعرف على عَلَم كريم جمع بين رفعة علم السلف وقمة التواضع إنه الشيخ العلامة المجاهد الفقيه المحدث أبو بكر بن محمد عارف بن عبدالقادر بن محمد علي خوقير المكي الكتبي الحنبلي .

ولد في هذه البقعة المباركة يوم ستة وعشرين من شهر ذي الحجة من عام أربعة وثمانين ومائتين وألف للهجرة .

نشأ في بيت علم وأدب فأبوه وجده من العلماء المعروفين ومن أئمة الحرم المكي الشريف ومن المدرسين فيه فكان في العلم ذا همة عالية وذا شغف رفيع .

وقد أدرك أهمية الاستفادة من البيئات العلمية المتمكنة فكان يذهب إلى الهند بين الفينة والفينة ويعود وفي جَعْبَتِه بعضُ المطبوعات الهندية ، حيث كانت الطباعة رائجة والعلماء كُثُرٌ هناك آنذاك .

ولم يَفُتَّ من عضده أو يُخْمِدَ همتَّه أنه عاش في عصر خيَّم عليه الجهلُ بالتوحيد وسادت فيه البدع والخرافات ، بل أَكَبَّ على العلم ينهل من موارده الصحيحة فحفظ القرآن الكريم وجوَّده على العلماء .

ثم بدأ شغفه يتعلق بكتب الحديث وظهرت عنايته بعلم الإسناد

---

١ - عمر عبدالجبار ، سير وتراجم ، ٢٢ ، و: عبدالله المعلمي ، أعلام المكيين ٤١٥/١، وأبو بكر خوقير ، ثبت الأثبات الشهيرة ، بتحقيق راشد الغفيلي ص ٣ ومابعدها – مقدمة المحقق - ، و: جامعة أم القرى ، مجموع مؤلفات الشيخ أبي بكر خوقير .

فارتحل في سنٍّ مبكرة إلى الآفاق يطلب العلم والأسانيد العالية والرواية عن علمائها .

ثم تفقه أولاً في مذهب الإمام أبي حنيفة تبعاً لآبائه وأجداده حتى أشار عليه شيخُه عبدُالرحمن سراج الحنفي مع آخرين بأن يتفقه في مذهبِ الإمامِ أحمدَ بنِ حنبل ؛ ليكون من علماء الحجاز من يصلح أن يتولى منصب الفتوى في هذا المذهب .

فدرس كتب السلف في العقائد ومنها كتب الشيخِ المجددِ محمدِ بنِ عبدِالوهاب ، وتأثر بقراءاته تلك أشد التأثر وآلمه ماآلت إليه الحالُ العقديةُ في عصره ، فأخذ يحارب الشركَ والبدعَ والخرافاتِ ، مستفيداً مما وهبه الله عز وجل من قوة الحجة ، ومن القدرة الفائقة على استحضار الدليل .

ناظر وجادل وألَّف الرسائلَ المفيدة ولاسيما في توسل العوامِ بالقبور لطلب الحاجات من الأموات ، وكان شديد الوطأة على من يستغل جهل هؤلاء لتحقيق مآربه الدنيوية بالتلبيس عليهم .

من شيوخه القاضي حسين بن محسن الأنصاري اليماني لقيه في الهند سنة ثلاث عشرة وثلاثمائة وألف وكتب له إجازة مطولة بخطه .

ومن شيوخه القاضي أحمد ابن إبراهيم بن عيسى النجدي والشيخ المحدث محمد نذير حسين قرأ عليه أوائل الكتب الستة وأجازه إجازة عامة .

ومن شيوخه الشيخ محمد بن عبدالعزيز المعروف بالشيخ محمد الهاشمي الجعفري الهندي أجازه إجازة عامة وأجازه بكتاب بلوغ المرام

ومن شيوخه الشيخ أحمد بن زيني دحلان قرأ عليه شيئاً من جمع الجوامع وبعض دروسه في تفسير البيضاوي .

ومن شيوخه الشيخ عبدالرحمن بن عبدالله سراج مفتي مكة وهو ممن أثّر فيه كثيراً .

ومن شيوخه الشيخ محمد بن خليل القاوقجي الطرابلسي لقيه في مكة المكرمة حين ورد إليها حاجاً سنة خمس وثلاثمائة وألف للهجرة وأسمعه المسلسل بالأولية .

ومن شيوخه الشيخ محمد الأنصاري السهارنفوري المكي قرأ عليه أكثر صحيح البخاري بمنزله في مكة المكرمة .

ومن شيوخه جده الشيخ العلامة الفرضي عبدالقادر بن محمد علي خوقير قرأ عليه أكثر كتاب الشفا للقاضي عياض بشرح الملا علي القاري وشرح النخبة لابن حجر و من شيوخه السيد علوي بن صالح ابن عقيل الحسيني .

وأما تلامذتُه فَكُثُرٌ ومنهم الشيخ صالح بن عثمان القاضي علامة عنيزة حيث لازمه ست عشرة سنة ومن تلامذته الشيخ المؤرخ المُسْنِد – أي عالم الإسناد – عبدالستار الدهلوي ومن تلامذته العلامة محمد بن إسماعيل السلفي ومن تلامذته الشيخ محمد راغب الطباخ مؤرخ حلب

ومُسْنِدُها ومن تلامذته الشيخ القاريء إبراهيم بن موسى الخزامي السوداني ثم المكي ومن تلامذته الشيخ إبراهيم ابن عبدالله الدهلوي ومن تلامذته الشيخ محمد بن حسين الفقيه صاحب كتاب (الكشف المبدي لتمويه أبي الحسن السبكي تكملة الصارم المنكي)

تولى الشيخ أبو بكر خوقير عدداً من الوظائف واضطلع بعدد من الأعمال والمهام .

ومن ذلك تعيينُه كما توقع له شيخُه عبدُالرحمن سراج مفتياً للحنابلة وإماماً لهم ومدرساً بالمسجد الحرام في عهد الشريف عون .

ثم عينه الشريف حسين سنة سبع وعشرين وثلاثمائة وألف للهجرة مفتيا للحنابلة لكنه مالبث أن عزله بسبب وشاية بعض معاصريه بأنه وهابي .

إلا أن الشريف حسين وبسبب المنزلة العالية للشيخ أبي بكر خوقير عاد سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة وألف للهجرة فعينه عضواً في مجلس الشيوخ الأعلى في الحجاز .

والعَلَم الذي أتحدث عنه الآن ذو جهاد ومواقف خالدة شأنه شأن العلماء المجاهدين الصابرين وقد تقرر عقلاً وتاريخاً أن الذين بلغوا شأواً رفيعاً في الدعوة وجهاد العصاة وعلى رأس هؤلاء الأنبياء والصالحون أمتحنوا واضطهدوا .

كان الشيخُ أبو بكر خوقير شديداً على أهل البدع والخرافات لاسيما

القبوريون منهم ، وكان في جهاد مستمر بلسانه وببنانه حيث صنَّف المصنفات المفيدة ، وعارك الواقع في ميدانه ؛ فلم يكن غريباً أن يُبتلى ويُمتحن وأن يُؤذى في الله أشد الإيذاء .

عزل من التدريس في عهد الشريف عون ومن الإفتاء ومن عضوية مجلس الشيوخ في عهد الشريف حسين .

بل إنه بسبب دعوته لتحقيق التوحيد وتبرئتِه من البِدَعِ والشركيات سجن عدة مرات مرةً قرابةَ ثمانية عشر شهراً ومرةً سبعين شهراً .

بل طال الإيذاء أسرته ، حيث سجن معه ابنُه عبدالقادر وكان سجنُه في قبوٍ أعده الشريفُ حسين لمن يشتد عليه غضبُه .

واستمر في سجنه حتى دخل الملكُ عبدُالعزيز مكة المكرمة وانطلق أفراد جيشه يهدمون الأضرحة والقباب ويؤمنون ساكني البيت الحرام ويطوفون بالبيت العتيق ، ثم عمدوا إلى السجن وأخرجوا الشيخ خوقير ومن معه منه .

اعتزل الشيخُ خوقيرالوظائف العامة ولازم بيته ومسجده وحظي من الملك عبدالعزيز ومن علماء الدعوة بماهو أهله من الفضل والتقدير حتى تُوُفِّيَ بالطائف في يوم الجمعة غرةِ ربيع الأول عام تسعة وأربعين وثلاثمائة وألف للهجرة مخلفاً تاريخاً حافلاً بالعلم والتدريس والإفتاء والإمامة في الدين والأمرِ بالمعروف والنهي عن المنكر والجهادِ ضد المبتدعة وضلالات الصوفية .

كان ذا حكمة وحرص على أن يستفرغ طالبُ العلم جهدّه فيماينفعه فحسب ، فقد سأله الشيخ عبدالستار الدهلوي عن سنِّه فكان جوابه دليلَ حكمته كما يرويه الشيخُ عبدُالستار نفسُه في ترجمته لعلماء القرن الثالث فيقول : سألت أستاذي الشيخَ أبا بكر خوقير عن سنِّه فسكت ثم قال: أَقْبِل على شأنِك ، فإني رويت بسندي إلى الإمام الشافعي قال: سألت مالكاً بنَ أنسٍ عن سنِّه ، فقال: أقبل على شأنك ، وليس من المروءة إخبارُ الرجل عن سنِّه ، إن كان صغيراً استحقروه وإن كان كبيراً استهرموه .

ومن دلائل حكمته وعلمه أيضاً أنه كان يوصي بقراءة صحيح البخاري ويقول : إني قرأت صحيح البخاري فعرفت شرحَ الحديث بعضَه ببعض ، كما استفدتُ من مسند إمامنا أحمدَ بنِ حنبل .

وكان يقول لطلابه إنه يكفي الطالبَ المبتديءَ بلوغُ المرام وعمدةُ الأحكام ، وللطالب المنتهي المشكاةُ والمنتقى ؛ فإنهما جمعا ما في الكتب الصحاح مع بيان الصحيح من السقيم .

على أية حال بقيت مآثرُ الشيخِ أبي بكر خوقير العلميةُ تشير إلى شيء من فضلِه وسيرته ومنها كتابه (فصلُ المقال وإرشادُ الضال في توسل الجهال) طبع سنة أربع وعشرين وثلاثمائة وألف للهجرة بمطبعة المنار بمصر ، ثم أعيد طبعه بعد ذلك محققاً عن دار المسلم في الرياض ، وكتابه (تحرير الكلام في الجواب عن سؤال الهندي في صفة الكلام)

وهو مخطوط بمكتبة الحرم المكي برقم ثمانية وتسعين ومائتين وألف ، وكتابه (التحقيق في الطريق) وهو في نقد المتصوفة ، وكتابه (مختصر في فقه الإمام أحمد) ، وقد طبع بدمشق عام تسعة وأربعين وثلاثمائة وألف للهجرة ، وكتابه (مسامرة الضيف في رحلة الشتاء والصيف) ، وقد طبع في بيروت بدون سنة نشر ، وكتابه (حسن الاتصال بفصل المقال في الرد على بابصيل وكمال) ، وكتابه (السجن والمسجونون) ، وكتابه (ثَبَت الأثبات الشهيرة) ، صدرت طبعته الأولى بتحقيق الشيخ راشد بن عامر الغفيلي في الرياض عام ١٤٢٥هـ ، ثم طبع ضمن مجموع مؤلفات الشيخ خوقير التي أصدرتها جامعة أم القرى بعد ذلك .

وله ثلاثة كتب تنتظمها سلسلة واحدة هي سلسلة الأوليات في الدين ، وهذه الكتب الثلاثة هي : كتابه (مالابد منه في أمور الدين) الذي طبع بالقاهرة سنة ثنتين وثلاثين وثلاثمائة وألف للهجرة وأعيدت طباعته بالرياض سنة ثنتي عشرة وأربعمائة وألف للهجرة ، وكتابه (مالاغنى عنه) وهو شرح لكتابه (مالابد منه في أمور الدين) ، والثالث كتابه (مالايسع المكلفَ جهلُه) ، وهو تكملة لكتابه (مالابد منه في أمور الدين) .

٧ - في بيت آل شطا : [١]

وهو بيت من البيوت العلمية المتميزة في مكة المكرمة ولنبدأ بأحد أعلامه البارزين وهو السيد أبو بكر بكري بن محمد زين العابدين شطا الشافعي المكي .

ولد بمكة المكرمة سنة ست وعشرين ومائتين وألف للهجرة ، عاش يتيماً في بيت أخيه عمر ، فعُنِيَ به وحفَّظه القرآن الكريم مجوداً وعمره سبع سنين .

كما حفظ مجموعة من المتون العلمية في القراءات والفقه والفرائض والنحو والبلاغة على مشاهير علماء مكة المكرمة والوافدين إليها .

ونبغ في العلوم العقلية والنقلية ، فتصدى للتدريس بالمسجد الحرام وتخرج على يديه جمع غفير من طلبة العلم .

وله عدة كتب منها : إعانة الطالبين على حَلّ ألفاظ فتح المعين ، وكتاب جواز العمل بالقول القديم للإمام الشافعي في صحة الجمعة بأربعة ، وكتاب شروط الجمعة وجواز تعددها بقدر الحاجة في البلد الواحد ، وكتاب الدرر البهية فيما يلزم المكلف من العلوم الشرعية ، وكتاب القول المنقَّح المضبوط في صحة التعامل ووجوب الزكاة في الورق النَّوط .

---

١ - عمر عبدالجبار ، سير وتراجم ، ٦٥ و٩٣ ، و: عبدالله المعلمي ، أعلام المكيين ١/٥٥٨-٥٦٦، و: محمد علي مغربي ، أعلام الحجاز ١/٦٢ .

وله تفسير القرآن الكريم توقف فيه عند سورة (المؤمنون) ، كما طبعت له فتاوى وأسئلة في الفقه .

توفي السيد بكري شطا عام عشرة وثلاثمائة وألف للهجرة بمكة المكرمة .

والحديث عن بكري شطا يأخذنا إلى الحديث عن أخيه الذي نشأ في داره وهو السيد عمر بن محمد شطا المولود بمكة المكرمة عام تسعة وخمسين ومائتين وألف للهجرة .

حفظ القرآن الكريم صغيراً وتلقى العلم من علماء المسجد الحرام والمدرسين فيه كالسيد أحمد دحلان والشيخ محمد بسيوني والشيخ محمد بابصيل ، ليتولى بعد ذلك التدريس في المسجد الحرام مدرساً في الفقه والنحو والعقائد .

اشتهر عنه اكتظاظ حلقته بطلاب العلم وطريقته الفريدة في التدريس ، حيث كان بعد فراغه من الدرس يجلس يسمع من طلابه مايحفظونه من المتون العلمية ، فيصحح مايحتاج إلى تصحيح ، ويشرح مايحتاج إلى شرح منها .

توفي بمكة المكرمة عام واحد وثلاثين وثلاثمائة وألف للهجرة .

ثم ننتقل إلى عَلَمٍ آخرَ من أعلام بيت شطا في مكة المكرمة هو السيد عثمان بن محمد شطا الشافعي المكي المولود بمكة المكرمة سنة ثلاث وستين ومائتين وألف للهجرة .

بها نشأ وحفظ القرآن الكريم ومجموعة من المتون العلمية وقرأ على والده وعلى الشيخ محمد سعيد بابصيل والشيخ محمد بسيوني حتى أصبح من العلماء الأعيان بمكة المكرمة ، متصدياً للتدريس في المسجد الحرام سنواتٍ عديدةً .

تُوُفِّيَ بمكة المكرمة عام خمسة وتسعين ومائتين وألف للهجرة .

ومن الأعلام البارزين في بيت شطا المكي السيد أحمد ابن أبي بكر شطا المولود عام ثلاثمائة وألف للهجرة حفظ القرآن وجوَّده ثم شرع في طلب العلم عن والده وعن عمه السيد عمر شطا والسيد حسين حِبشي مفتي الشافعية آنذاك وسعيد اليماني والعالم الفلكي الشيخ محمد خياط وأجازوه جميعاً بالتدريس فكانت له حلقة تدريس عند باب السلام مما يلي المطاف .

كما عمل في مهنة التدريس بالمعارف ، ثم نقل إلى هيئة تحرير مجلة الحج ، واشتهر بصراحته في قول الحق لايخشى فيه لومةَ لائم .

فقد حدث أن أعلن حزب الاتحاد والترقي دستورَه وكتبوا بياناً بموافقة علماء مكة على حزبهم ودستورهم فلما عُرِض البيان على السيد أحمد شطا رفض التوقيع عليه ، غيرَ مبالٍ بماسيترتب على هذا الرفض من عَنَت الاتحاديين وكيدهم ، وكان إذا سمع طلاب مدرسة الاتحاد والترقي ينشدون حرية عدالة مساواة أخوة وهم يحملون أعلام حزب الاتحاد والترقي اغرورقت عيناه بالدموع أسفاً على تفرق كلمة

المسلمين وبدء تفكك وُحدتهم .

عُرف عن السيد أحمد شطا أنه كان عطوفاً جداً على الفقراء والمساكين والمحتاجين ، حدَّث الشيخ حسن عشي طباخ الملوك في عهد عون الرفيق أن الشيخ يوسف قطان أقام وليمة على طاولات الطعام دعا إليها أثرياء مكة وعلماءها وكان السيد أحمد شطا من جملة المدعوين وبعد تناول الطعام همس السيد أحمد في أذني – الكلام لحسن عشي – قائلاً : أريد أن أقيم وليمة مثل هذه ، ولكن على الأرض .

وطلب مني ترتيبها ، ودَفَع جميع تكاليفها .

وما أن وضع الطعام حتى أقبل فقراء الأربطة وطلبة العلم فقابلهم السيد أحمد شطا ببشاشته المعهودة وترحيبه المستمر وهنا هبَّ أخوه ليحاول الهرب بعد أن رأى نوعية الحضور ، وكان توقع أن يكون المدعوون هم وجهاء وأثرياء القوم ، فأمسكه السيد أحمد بقوة وقال له : هؤلاء أكرم عندالله من أولئك الأغنياء ، هؤلاء هم أهل الجنة ، فهم أحق بالتكريم ، وأمره بالوقوف في الباب للترحيب بهم .

وطبَّق ذلك هو شخصياً عندما شيعهم بعد تناول الطعام .

وهكذا عاش السيد أحمد شطا محباً للعلم وطلابه إلى أن تُوفي عام اثنين وثلاثين وثلاثمائة وألف للهجرة .

وننتقل إلى علم آخر من أعلام هذا البيت المكي هو السيد صالح بن بكري شطا الذي وُلِد في عام اثنين وثلاثمائة وألف للهجرة فحفظ

القرآن الكريم على يد أخيه أحمد الذي عاش في كنفه بعد وفاة والده .

ثم تلقى العلم من شيوخ عصره في مكة المكرمة كالشيخ عبدالله بن صدقه دحلان والسيد حسين الحبشي والشيخ محمد يوسف خياط والشيخ سعيد اليماني والشيخ أسعد دهان وغيرهم .

حفظ متون الفقه واللغة العربية وقرأ بعض كتب الأدب والبلاغة والفلك ، كما قام برحلات علمية إلى بعض البلاد العربية والهند وملاوي ، حتى استحق أن يتبوأ مقعد التدريس في الحرم المكي الشريف عام ستة وعشرين وثلاثمائة وألف للهجرة ، بعد أن نجح في امتحان هيئة علماء مكة .

عارض حكم الشريف حسين بن علي لظلمه وكاتب عدداً من المجلات المصرية كالمقتَطَف معدداً مظالمه .

تولى عدداً من الوظائف العامة ؛ إذ انتُخِب عضواً في الجمعية الأهلية، ثم عضواً في لجنة التفتيش والإصلاح ، ثم مستشاراً لنائب جلالة الملك في الحجاز ، ثم معاوناً له وعضواً في مجلس الوكلاء .

كما تقلد منصب مدير المعارف ، وأصبح عضواً بمجلس الشورى ، فنائباً لرئيس المجلس .

توفي عام تسعة وستين وثلاثمائة وألف للهجرة .

وفي بيت أحمد بن بكري شطا عاش عَلَمٌ آخر من أعلام مكة المكرمة هو السيد حسين بن بكري شطا المولود عام سبعة وثلاثمائة وألف

للهجرة .

وفي الثالثة من عمره فقد والده السيد بكري شطا فعاش مع أخيه صالح في كنف أخيهما أحمد .

وعنه وعن مشايخ عصره تلقى العلم حتى نبغ في العلوم الدينية وعلوم اللغة العربية ، مما أهله للتدريس في الحرم المكي .

وعُرِف عنه انفتاحه على المجالات العلمية المختلفة ، حيث كان يرى أن يؤخذ من العلوم الدنيوية بالقدر الذي لاغنى للفرد عنه ، مما لاتستقيم الحياة إلا به ، مع مراعاة البيئة وضرورات الناس عند التلقي .

استمر السيد حسين شطا ناشراً للعلم رافعاً لواءه حتى وافاه الأجل عام خمسة وخمسين وثلاثمائة وألف للهجرة .

ومعه عاش في مكة المكرمة وفي بيت شطا عَلَمٌ آخر هو السيد هاشم ابن عبدالله بن عمر بن محمد شطا المولود بمكة المكرمة عام اثنين وثلاثمائة وألف للهجرة .

حفظ القرآن الكريم وعدداً من المتون في الفقه والنحو على عدد من كبار علماء مكة المكرمة في عصره كالشيخ عمر باجنيد والسيد حسين الحبشي والشيخ جمال المالكي ومحمد بابصيل وغيرِهم .

عمل مدرساً بالمدرسة الصولتية سنوات عديدة ، بالإضافة إلى الدروس التي كان يلقيها في المسجد الحرام .

كان عالماً فقيها اشتهر بتواضعه الجم تُوُفِّيَ بمكة المكرمة سنة ثمانين

وثلاثمائة وألف للهجرة .

ومن الأعلام البارزين من بيت شطا في القرن الرابع عشر الهجري نُلْمِحُ إلى علمين اثنين كليهما تخرجا من مدرسة الفلاح بمكة المكرمة ومن حِلَقِ المسجد الحرام أولهما أحمد بن صالح بن بكري شطا الذي عمل في الشعبة السياسية في مكتب نائب جلالة الملك بالحجاز ولازم الملك فيصل في أسفاره ولاسيما في سفره إلى الأمم المتحدة ثم عين عضواً في مجلس الشورى ثم وزيراً للتجارة وأسهم في تأسيس جامعة الملك عبدالعزيز الأهلية بجدة وكان نائباً لرئيس الهيئة التأسيسية لها وعضواً في الهيئة التنفيذية .

والعَلَم الثاني هو علوي بن حسن شطا ، تولى عدة مناصب قيادية في ميدان التربية والتعليم وآخرها عمله مديراً للمدرسة العزيزية بمكة المكرمة .

كانت لديه مكتبة غنية بالمراجع المهمة في مختلف المعارف العلمية والثقافية بلغت سبعة وثمانين وثلاثمائة وألف كتاب مطبوع وخمسة وأربعين مجلداً من الدوريات العربية النادرة ، وبعد وفاته انتقلت إلى المكتبة المركزية بجامعة أم القرى .

٨ - في بيت القطان : [١]

ويتواصل إلقاء الضوء على عدد من الجوانب المضيئة من ثقافةِ مكـةَ المكرمـةِ الـتي هـي العاصـمةُ المقدسـة للمـسلمين في كـل بقـاع الأرض ومهوى أفئدتهم ومعقد آمالهم في كل زمان ومكان من خلال تناول هذه الجوانب في بيوتاتها العلمية التي أسهمت في بناء أسس تلك الثقافة الـتي امتدت آثارها إلى الأقطار الإسلامية كافة وفي كل عصر من العصور منذ أن بزغت شمسُ الإسلام إلى اليوم وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها محفوظة بحفظ القرآن الكريم الذي نزل أول مانزل على رسول الله محمد ﷺ في رحابها الطاهرة (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) الحجر ٩

ومن البيوت العلمية في مكـة المكرمـة المتميـزة : بيـت القطـان وفيـه نصحب سيرة الشيخ أحمد بن محمد القطان المكي المالكي .

ولد ونشأ بمكة المكرمة وكان ذا فهم ثاقب وذكاء مفرط تـوفي والـده وهو صغير فتولت والدته تربيته ودفعته لملازمة الشيخ إبراهيم القداس، حيث قرأ عليه النحو وبعض العلوم الأخرى .

كما جدّ في التحصيل وأخذ العلم عن عدد من علماء مكـة المكرمـة منهمكاً على المطالعة والمذاكرة مكباً على الإبحار في أمهات الكتب ودُرَر أئمة العلماء ، بارعاً في الاستفادة ممـا توصـل إليـه مـن المـوارد العلميـة

---

١ - عبدالله المعلمي ، أعلام المكيين ٧٦٧/٢-٧٧٠، و: محمد علي مغربي ، أعلام الحجاز ٧٦/١ .

والثقافية من كتب وأعلام .

ينهل من الكتب ويلازم العلماء حتى تكونت لديه ثروة علمية ضخمة ، مما أهله أن يتصدّى للتدريس ، فأقبل عليه الناس وانتفعوا بعلمه ، وتخرج من حلقته عددٌ من طلاب العلم ومن علماء مكة المكرمة ، وكانت له في النفوس المنزلةُ الساميةُ الرفيعةُ والكلمةُ المسموعةُ والرأيُ الموقَّرُ .

ولعل مما زاد حرص طلاب العلم على ورود مجلسه العلمي ماكان عليه من دماثة خُلُق وصلاح مسلك مع هيبة ووقار ، وزانه ماكان يتحلى به من ورع وتقوى ، فقد عرف عنه أنه كان طيب القلب سليم الطوية مخلصاً في تعليمه لطلابه ، وفي توجيههم نحو التفقه في الدين والتذرع بالصبر والحلم وسعة الصدر ورحابة الخُلُق .

توفِّي بمكة المكرمة سنة تسع ومائة وألف للهجرة .

ومن أعلام بيت القطان عفيف الدين بن عبدالله بن أحمد القطان المولود بمكة المكرمة وفيها نشأ وترعرع ولازم علماء المسجد الحرام ، وأخذ عن علماء عصره ومنهم والده الذي لازمه ملازمة تامة .

حتى إذا اشتد عودُه تصدَّر للتدريس في الحرم المكي ، وأصبح معقد تطلعات طلاب العلم ، يدرسون على يديه وينهلون من علمه ، ويستنيرون بأخلاقه مايرشدهم إلى النافع لهم في دينهم ودنياهم .

أظهر مهارة في عدد من العلوم ، وكان ذا جَلَد دائب وعزيمة ماضية ،

وحريصاً على مناقشة طلابه في مايلقيه عليهم من دروس وماينهلون منه من علم ؛ ليختبر قدراتهم في تحمل مايأخذون منه على الوجه الصحيح، وليفتح أمامهم سُبُلَ التعبير عن ذواتهم وأفهامهم ، وليتيح أمامهم فرصة سؤاله عما يشكل عليهم من مسائل العلم ودقائقه ، فيجيبهم بصدر رحب وابتسامة مشرقة وعلم متدفق يغرف من بحر متباعد الجوانب ، يعينه على أن يشرح لهم غوائب الأفكار التي قد تَنَدُّ عن الأفهام عادة إلا بالتركيز عليها وبتذاكرها وتقييدها .

وكان ممن عُرِف بكثرة صلاة الليل والطواف والذكر والعبادة فعرف الناس فضله وشهدوا بمكارمه حتى توفي بمكة المكرمة عام خمسين وألف ومائة للهجرة .

وفي بيت القطان نجد علماً من أعلام مكة المكرمة ورجلاً من أهم أعيانها في عصور تاريخية متتابعة إنه يوسف قطان الذي تقلب في مناصب شتى في العهد السعودي والعهد السابق له ففي سنة ثلاث وثلاثمائة وألف للهجرة تولي مشيخة الجاوة ثم عُيِّن رئيساً لبلدية مكة المكرمة سنة إحدى وثلاثين وثلاثمائة وألف للهجرة ثم وزيراً للنافعة في حكومة الشريف حسين .

كانت له منجزات عمرانيةٌ وثقافية مهمة للارتقاء بمستوى العاصمة المقدسة حيث عمل على تحسين صورة العاصمة المقدسة ، وكانت له جهود ومبادرات مشهودة كفتح شارع الحجون بين جبلين في وقت لم

تكن تتوافر المعدات والآلات بالصورة التي هي عليها الآن في وقتنا الحاضر .

وقد عرف الأهالي فضله وقدَّروا جهوده فسمي الشارع الجديد في مكة المكرمة باسمه الشارع اليوسفي ؛ تقديراً له .

عندما دخل الملكُ عبدُالعزيز مكةَ المكرمة سنة ثلاث وأربعين وثلاثمائة وألف للهجرة سافر يوسف قطان إلى مصر هرباً خوفاً على نفسه وتجارته من العهد الجديد الذي لايعرفه ، حتى تبينت له الأمور جيداً ، فشمله عطف الملك عبدالعزيز الذي عرف له قدرَه وسابقتَه في خدمة البلدِ الحرام وأهلِه .

عاد إلى مكة المكرمة وأصبح من المقربين عند الملك عبدالعزيز فقد زاره في داره عندما مرض وعينه عضواً في مجلس الشورى ثم نائباً لرئيس لجنة الحج سنة سبع وأربعين وثلاثمائة وألف للهجرة حتى توفي سنة تسع وأربعين وثلاثمائة وألف للهجرة بمكة المكرمة وعمرُه ثمانون سنة حافلة بالعطاء والإنجازات .

وفي هذا البيت المكي نستعرض سيرة الشيخ عباس يوسف قطان المولود بمكة المكرمة عام ألف وثلاثمائة وثلاثة عشر للهجرة .

وفي أحد كتاتيبها تلقى بداية تعليمه .

عُني الشيخ يوسف بابنه عباس فكان يجلب له المشايخ في بيته لتجويد القرآن الكريم ولتلقي بعض دروس الفقه واللغة ، كما كان يرسله بين

العشاءين يومياً لحضور حلقات الدروس في الحرم المكي الشريف .

وفيها أخذ العلم عن عدد من علماء مكة المكرمة كالشيخ سعيد يماني والشيخ المرزوقي والشيخ عمر باجنيد والشيخ عمر حمدان المحرسي ، حتى انتقل إلى المدرسة الصولتية وهي من أوائل المدارس الخيرية الخاصة بمكة المكرمة أنشئت في بداية القرن الرابع عشر الهجري عن طريق أحد التجار الهنود لتعليم العلوم الدينية .

عُيِّن الشيخ عباس في المجلس البلدي بمكة المكرمة في العهد السعودي، حتى عينه الملك عبدالعزيز أميناً للعاصمة عندما كانت عاصمة الدولة عام سبعة وأربعين وثلاثمائة وألف للهجرة .

واستمر في منصبه حتى تم تعيينه في عام ألف وثلاثمائة وأربعة وستين للهجرة عضواً في مجلس الشورى .

طلب الإعفاء من مناصبه الحكومية ليتفرغ للأعمال الخيرية التي كان يزمع القيام بها .

كما كان موضع ثقة الملك عبدالعزيز ، ينتدبه لكثير من المهام التي تتطلب حكمة الرجال وحسن أخلاقهم وقدرتهم على التعامل مع الآخرين .

ومن دلائل هذه الثقة أنه عندما انتهت إمارة عبدالعزيز بن إبراهيم للمدينة المنورة انتدب الملكُ عبدُ العزيز الشيخَ عباس قطان لتصريف شؤون الإمارة حتى تم تعيين عبدالله السديري أميراً لها .

وقد اشتهر الشيخ عباس قطان بالكرم ، فكانت دارُه بالشامية في مكة المكرمة طوال العام ، ودارُه في الطائف صيفاً تغص بروادها من أهل العلم والفضل والضيوف الذين تُنصَب لهم الموائد ليلاً ونهاراً ، وكانت هذه الدار ذات أثر فعّال في إبراز ثقافة مكة المكرمة .

ومن ذلك أن محمد حسين هيكل رئيس مجلس الشيوخ المصري في وقته والمؤلف المشهور نزل في هذه الدار عندما رغب في الحج ، وهُيئت له السبل للتعرف على آثار مكة المكرمة ومعالمها المهمة ، وكتب عن مشاهداته تلك في كتابيه (في منزل الوحي) و(حياة محمد)

وقد عرف عن الشيخ عباس قطان تشجيعه للعلم ومحبته للعلماء ودعمه لهم ، ومن ذلك طباعته كتاب (القِرى لقاصد أم القُرى) لمؤلفه الإمام محب الدين الطبري وهو كتاب جليل في تاريخ مكة المكرمة .

قام بإهدائه لطلبة العلم والأدباء ومحبي المعرفة والاطلاع ، كما اشترى مكتبة الشيخ حامد الكردي ، وكانت من أكبر المكتبات الخاصة بمكة المكرمة ، وفتح أبوابها لطلاب العلم والمعرفة ، ينهلون من خيراتها الثقافية والفكرية .

كما كانت له جهود في تأسيس مدارس تحفيظ القرآن الكريم .

ومن الجوانب المضيئة في حياة الشيخ عباس قطان حرصه على إصلاح ذات البين ، فكان مشهوراً بتحري الإصلاح بين العائلات والأفراد في مكة المكرمة ، إذا طال بينهم الجفاء أو العداء .

وكان قضاة مكة المكرمة يحيلون إليه من القضايا التي تعرض عليهم مايرون أن المصلحةَ تستدعي تدخلَه فيها بالإصلاح صلةً للرحم وإحساناً للجوار ، فكان يبذل جهده وماله في ذلك ، فأثمر عملُه خيراً كثيراً ونفعاً عميماً .

توفي الشيخ عباس قطان في السادس عشر من رجب سنة سبعين وثلاثمائة وألف للهجرة عن عمر يناهز الثانية والخمسين .

٩ - في بيت الدهلوي : (١)

وفيه نسعد بصحبة الشيخ الفاضل أبي الفيض عبدالستار بن عبدالوهاب الدهلوي .

ولد بمكة المكرمة عام ستة وثمانين ومائتين وألف للهجرة ، أكبَّ على القرآن الكريم حتى أتمَّ حفظه كاملاً ، فالتحق بالمدرسة الصولتية ذات الشهرة العلمية الواسعة ، وأخذ عن جهابذة علمائها العلوم المقررة فيها .

ومع مادة هذه العلوم استفاد التخلقَ بأخلاقهم المؤسَّسَةِ على الدين والتقوى والورع والزهد والجد في الطلب والدأب في التحصيل ، مما دفعه إلى مواصلة دراسته في أروقة المسجد الحرام ؛ ليأخذ العلم عن علمائه وعن العلماء الوافدين في المواسم ومنهم الشيخ عباس بن جعفر ابن صديق الفقيه الأصولي اللغوي النحوي ، وعن ابنه الشيخ عبدالله ابن عباس بن صديق ، وعن الشيخ عبدالرحمن سراج مفتي الأحناف ، وعن السيد محمد حقي بن إبراهيم النازلي ، والسيد محمد مكي بن السيد محمد صالح كتبي ، وعن الشيخ عمر بن محمد البقاعي ، والشيخ محمد سعيد بابصيل ، والشيخ أحمد الحضراوي الشافعي ، والشيخ أحمد دحلان مفتي الشافعية ، والشيخ خلف بن إبراهيم الحنبلي ، والسيد

---

١ - عبدالله المعلمي ، أعلام المكيين ١/٤٣٧-٤٤٣، و: عمر عبدالجبار ، سير وتراجم ، ١٩٦، و: محمد علي مغربي ، أعلام الحجاز ١/٧٦ و: عبدالوهاب أبو سليمان ، العلماء والأدباء الوراقون في الحجاز ص١٠٢.

عبدالله بن السيد نور الدين النهاري اليمني ، والشيخ محمد نواوي بن عمر البنتني ، والشيخ محمد شربيني ، والسيد الكَروَكي الحنفي ، والسيد عبدالله ميرغني ، والشيخ محمد حسب الله والسيد حسين الحِبشي مفتي الشافعية ، والشيخ محمد صالح السناري ، والشيخ أحمد بن عيسى النجدي الحنبلي ، والسيد محمد صالح زواوي وغيرهم .

ومن خلال تصفح ثَبَت شيوخه يتضح لنا بجلاء أن الشيخ عبدالستار الدهلوي قد اغترف من مختلف المشارب العلمية الفقهية والأصولية واللغوية ومن مختلف الجنسيات مما أسعفه بذائقة ثقافية متنوعة .

ولم يكتفِ بهذا فحسب بل إنه استسهل وعورة الطريق ومشاقّ السفر على الدواب في وقته بين مكة المكرمة والمدينة النبوية من أجل توسيع دائرة ثقافته العلمية ولكي ينهل العلم من علمائها مثل الشيخ عبدالقادر بن أحمد الطرابلسي والسيد جعفر بن إسماعيل البرزنجي والشيخ محمد الدسوقي مفتي المالكية والسيد محمد سعيد بن محمد الظاهري والشيخ عثمان بن عبدالسلام الداغستاني مفتي الشافعية .

وانتقل قطار طلب العلم في حياة الشيخ عبدالستار الدهلوي إلى الطائف حيث توقفت عرباته في محطات عدد من حلقات المشايخ مثل الشيخ عبدالمطلب الطائفي والشيخ عبدالحفيظ القاري الحنفي .

فلم يكن غريباً أن يحظى بكثير من الإجازات والسماعات مع كثير من الثناءات التي توثق جهوده المباركة وهمته العالية في طلب العلم .

كما يسهل على المتأمل أن يَلْحَظ أن تعددَ مشايخَ الـشيخِ عبدِالـستارِ الدهلوي وأن تنوعَ مدارسِهم كان له أثر بالغ في غزارة تآليفه وجودتِها ولاسيما أنه كان ذا أسلوب بديع يشد قارئه بـسلاستِه وعفويـةِ تعـابيره ودقتِها وجمالِ الصورِ التي يرسمها في حديثه الشيق .

ومن ذلك أنه عندما يتحدث في كتبه عـن مـشايخه فإنـه يركـز علـى التفـصيلات الدقيقـة الـتي تـستأثر باهتمـام القـاريء محـدثاً إيـاه عـن شخصياتهم وعن طريقة تدريـسهم وعـن الطلبـة الـذين يدرسـون بـين أيديهم في المسجد وفي منـازلهم وعـن بعـض المواقـف والطرائـف الـتي تحملها دروسهم .

كان رحمه الله يدرس في صحيح البخاري عند باب المحكمة الـشرعية بعد صـلاة العـصر ، ولـه دروس في التفـسير والحـديث ومـصطلحه في خلوته برباط الداودية ، وكـان يـردف اسمـه بوصـف الحنفـي فيكتبـه عبدالستار الدهلوي الحنفي ، فسأله أحد تلاميذه الذين يدرسـون عنـده في الحديث ومصطلحه : كيف هو مـن أهـل الحـديث ويُنسَب إلى أبـي حنيفة ؟ فأجاب إني حنفي المذهب غـير أنـه إذا صـحَّ الحـديث عنـدي أعمل به .

ولم يكن جواب الشيخِ عبدِالستار غريباً على من قرأ أو تـابع سـيرته العلمية فقد كان عارفاً بدرجة الحـديث يفـرق بـين صـحيحه وضـعيفه ولاسيما مع الإعجاب بصبره ودأبه في الطلب .

ولم يكن نشاط الشيخ عبدالستار الدهلوي خفياً عن أساتذته ومشايخه بل كان محل الإعجاب والتقدير أيضاً وهاهو شيخه الشيخ عباس بن جعفر بن صديق يعينه أميناً لفتواه تقديراً لجلده في المطالعة والبحث والمراجعة .

وهاهي مؤلفاته تشهد بغزارة علمه وسعة اطلاعه في الحديث ومصطلحه وفي الأسانيد والمسلسلات والتاريخ والطبقات .

ومن تلك المؤلفات (نورالأمة بتخريج كشف الغمة)في ستة مجلدات و(فيض الملك المتعالي بأنباء أوائل القرن الثالث عشر والتوالي) و(أزهار البساتين الطيبة النشر في أعيان كل عصر) و(ماقاله الأساطين في أوقاف الأمراء السلاطين)و(السلسلة الذهبية في الشجرة الحجية)،(نزهة الأنظار والفكر فيما مضى من الحوادث والعِبَر من هبوط آدم أبي البشر) و(نشر المآثر فيمن أدركتُ من الأكابر)و(جواهر الأصول إلى اصطلاح علم الرسول)و(عذب المواريد في برنامج كتب الأسانيد) و(رفع الستار المسدلة في ذكر بعض الأحاديث المسلسلة) و(عدة المسلسلات) و(النجمة الزاهرة في أفاضل المائة العاشرة) و(سرد المنقول في تراجم العلماء الفحول) و(مقدمة في النسب) و(تحفة الأحباب في بيان اتصال الأنساب) و(الإنصاف في حكم الاعتكاف)

وقد ضُمَّت معظم هذه الكتب إلى مكتبة الحرم ووزعت على أرفف المكتبة بحسب فنونها .

توفي الشيخ عبدالستار الدهلوي بمكة المكرمة عام خمسة وخمسين وثلاثمائة وألف للهجرة تاركاً خلفه حصيلة علمية لاتقدر بثمن . ولايفوتني هنا القولُ إن مؤلفاتِ الشيخ عبدالستار الدهلوي المخطوطةَ ثروةٌ ثمينةٌ تستحق بذل الجهد للتعريف بها يستوي في ذلك الموجودُ منها في مكتبة الحرم والمنثورُ في مكتبات تلاميذه وغيرِهم .

وهي بحاجةٍ إلى يدٍ كريمة تُخرِجُ كنوزَها إلى النور ولاأقل مما اقترحه الأستاذ عمر عبدالجبار وذلك بتشكيل لجنة علمية لدراسة هذه المؤلفات الخطية والإيصاء بطباعة النافع منها وماتتعلق به حاجة الناسُ اليوم .

ومن أعلام بيت الدهلوي بمكة المكرمة الشيخ إسحاق بن محمد أفضل العمري أبو سليمان الدهلوي المكي عالم فقيه محدث جاور بمكة المكرمة وأخذ العلم عن محدث عصره الشيخ عمر عبد رب الرسول وعن الشيخ عبدالحفيظ العجيمي .

تصدى للتدريس بالمسجد الحرام ، فأخذ عنه العلمَ عددٌ من العلماء منهم الشيخ عبدالمحسن أبادي توفي بمكة المكرمة سنة ثنتين وستين ومائتين للهجرة .

وفي بيت الدهلوي عَلَمٌ آخر هو إبراهيم بن عبدالله يارشاه بن يار محمد بن فضل الله الكتبي الدهلوي نسبة إلى دهلي .

رحل إلى العراق والشام ومصر لطلب العلم مع عنايته بعلم الحديث وقدم إلى مكة المكرمة سنة إحدى وستين ومائتين وألف للهجرة وأخذ

عن علمائها مثل الشيخ عبدالرحمن بن محمد الكزبري الشافعي والشيخ إمداد الله التهانوي والشيخ عبدالله سراج مفتي الحنفية بمكة المكرمة والشيخ أبو بكر خوقير والمحدث عبدالغني بن أبي سعيد الدهلوي والشريف محمد بن ناصر الحازمي وعبدالرزاق البيطار والسيد جعفر الكتاني .

كان الشيخ إبراهيم الدهلوي ورعاً ولايتكلم إلا اللغة العربية الفصحى ، وكانت له عناية فائقة بالكتب ، وله دكان يبيع فيه الكتب فيقصده فيه الطلاب للاستفادة منه ، وتلقي إرشاداته ، والأخذ عنه ، ولذلك لُقّب الكتبي .

توفي عام أربعة وخمسين وثلاثمائة وألف للهجرة .

ومن أعلام بيت الدهلوي بمكة المكرمة الشيخ عبيد الله الدهلوي الذي حفظ القرآن الكريم وتلقى العلم في رحاب مكة المكرمة مع حرص شديد على كتب الحديث والتفسير والتاريخ والأدب العربي .

فكان يحفظ الكثير من الشعر العربي ونوادر الأدب وقصص التاريخ الإسلامي .

عهد إليه الملكُ عبدُالعزيز الإشرافَ على شؤون عين زبيدة ، فقام بأعباء هذه المهمة خير قيام .

أدركته الوفاة بمكة المكرمة عام ثمانية وسبعين وثلاثمائة وألف للهجرة .

وفي بيت الدهلوي ذلك البيتُ العلمي بمكة المكرمة نقف على شـيء من سيرة الشيخة خديجة بنـت إسـحاق الـدهلوي الـتي جـاورت بمكـة المكرمة وتلقت العلم بها فكانـت العالمـةَ بالمـسائل الفقهيـة والأحاديـثِ النبوية .

قرأت على والدها الشيخ إسحاق الدهلوي المـدرس بـالحرم وعلـى عمها الشيخ يعقوب في التفسير والحديث والأصول والتوحيـد وغيرهـا من العلوم .

اشتُهِر عنها الصلاحُ وكثرةُ العبادة توفيت بمكـة المكرمـة سـنة عـشر وثلاثمائة وألف للهجرة .

١٠ = في بيت الخياط : [١]

وفيه نستعرض عدداً من الإلماحاتِ والإضاءات التي أسهمت في تشكيل الخارطة الثقافية لمكة المكرمة عبر العصور المختلفة .

بيت الخياط بيت علم يشار إليه بالبنان ولنبدأ فيه بالشيخ محمد حسين خياط أحدُ أبناءِ مكةَ وفضلائها .

كان شغوفاً بتحصيل العلم غيوراً عليه ومحباً لنشره .

وقد دفعه حرصه وغيرته إلى تأسيس مدرسة المسعى التي سميت مدرسة الخياط نسبة إلى مؤسسها الذي كان من العلماء الأفذاذ .

أحاط علماً بكثير من الفنون المنوعة من العلوم الشرعية والفلك وغيرها .

ويعدّ رائد التدريس التطبيقي في الحجاز ، حيث كان في تدريسه لايقتصر على تلاوة المتون والشروح والحواشي والتعليق عليها بنفس مافيها من تعابير ، بل كان يعمد إلى التلقين التصويري المعتمد على الأمثلة والروايات القادرة على ترسيخ المعنى في الذهن .

استمر عالماً فاضلاً ومعلماً متميزاً إلى أن وافاه الأجل بعد عام سبعة وعشرين وثلاثمائة وألف للهجرة .

وفي بيت الخياط علمٌ متميزٌ آخر إنه الشيخ محمد بن يوسف خياط

---

١ – عبدالله المعلمي ، أعلام المكيين ١/٤١٦–٤١٨، و: عمر عبدالجبار ، سير وتراجم ، ١١٠، و: عبدالله خياط ، لمحات من الماضي – كامل الكتاب – .

الشافعي المكي أحد أجلاء البلد الحرام .

بحرٌ في كثير من العلوم منطوقِها ومفهومها ولد بمكة المكرمة وفيها نشأ وترعرع وأكبّ على تحصيل العلوم المختلفة حتى عُقِدت له الخناصر وأثنى عليه الأصاغرُ والأكابر .

توفي بعد العام الثلاثين وثلاثمائة وألف للهجرة .

ونقف أمام بيت الخياط مستعيدين ذكرى أحد أعمدة هذا البيت المكي الكريم ، كان في تلاوته للقرآن الكريم ذا صوت متميز يستأثر بخشوع السامع ولبِّه .

إمام وخطيب المسجد الحرام وأحد المربين الفاضلين ممن لهم بصماتٌ واضحة في البناء التربوي والتعليمي في المملكة العربية السعودية .

إنه الشيخ عبدالله بن عبدالغني بن محمد خياط ذو السيرة الحافلة باللمحات المتنوعة من تجارب خصيبة تلونت بالأحداث المهمة وبالمواقف التربوية المؤثرة .

ولد بمكة المكرمة في التاسع والعشرين من شهر شوال سنة ستة وعشرين وثلاثمائة وألف للهجرة .

ونشأ في بيت علم ، فقد كان أبوه مثقفاً ثقافة دينية وله إلمام بالفقه الحنفي والتفسير والحديث .

درس في مدارس مكة المكرمة حيث حفظ القرآن الكريم في سن مبكرة في المدرسة الفخرية .

وفي مدرسة المسعى المسماة مدرسة الخياط تلقى تعليمه الابتدائي ، وفي المدرسة الراقية في العهد الهاشمي واصل المرحلة الثانوية ، كما درس في المدرسة الصولتية ، وتخرج في المعهد العلمي السعودي عام خمسين وثلاثمائة وألف للهجرة ، وكان المعهد آنذاك يمثّل جامعة إسلامية حقيقية ، بما يضمه من كوكبة كبار العلماء في المملكة وفي العالم الإسلامي .

نهل من معين حلق المسجد الحرام مستفيداً من علم وخبرات علمائه الأفذاذ ، لاسيما وقد وهبه الله عز وجل حافظة قوية وذاكرة واعية مع ولع شديد بطلب العلم ، فتكونت له حصيلة علمية في العلوم الشرعية والعربية والاجتماعية وغيرِها من العلوم العصرية .

تتلمذ على يد سماحة الشيخ عبدالله بن حسن آل الشيخ رئيس القضاة في الحجاز في وقته ، ولازمه قرابة عشر سنوات ، كانت كافية لإقناع الشيخ بنجابة تلميذه .

فرشحه للإمامة والخطابة في المسجد الحرام ، فصدر الأمر الملكي بتعيينه في هذا المنصب المهم عام ستة وأربعين وثلاثمائة وألف للهجرة .

وفي رمضان من هذا العام شارك في إمامة صلاة التراويح أول الليل وانفرد بإمامة صلاة القيام آخر الليل .

كما تتلمذ على الشيخ عبدالظاهر محمد أبي السمح أمام وخطيب المسجد الحرام والمدرس فيه وعلى الشيخ محمد عبدالرزاق حمزة أمام

وخطيب المسجد النبوي والمدرس فيه ثم في المسجد الحرام .

وفي المسجد الحرام أيضاً تتلمذ على الشيخ أبي بكر خوقير والشيخ عبدالله السندي والشيخ محمد حامد الفقي والشيخ سليمان الحمدان والشيخ المحدث مظهر حسين .

وفي المعهد العلمي السعودي كان من مشايخه الشيخ إبراهيم الشورى والشيخ محمد بن علي البيز والشيخ بهجت البيطار والشيخ تقي الدين الهلالي .

وفي المدرسة الفخرية درس على الشيخين حسن عرب ومحمد إسحاق القاري .

ونظراً لما يتمتع به الشيخ عبدالله خياط من صفاء العقيدة ونقاء السريرة وحسن الخلق فقد اختاره الملك عبدالعزيز ، وهو لايختار رجاله إلا بعد التحري والتمحيص ، فكيف به وهو يختار رجلاً ليحافظ على أغلى مايملكه الإنسان من ثروة وهم أبناؤه .

اختاره ليكون معلماً لأنجاله وعينه مديراً لمدرسة الأمراء بالرياض عام ستة وخمسين وثلاثمائة وألف للهجرة ، وكان من نظام هذه المدرسة التنقل بمعية الملك في أسفاره وتنقلاته ، فحظي معلم الأنجال بمرافقة جلالته في معظم رحلاته ، بل إن الملك عبدالعزيز كان يحب سماع القرآن الكريم من فم معلم أنجاله ، ويتأثر بطريقته في التلاوة .

استمر في منصبه هذا حتى وفاة الملك عبدالعزيز عام ثلاثة وسبعين

وثلاثمائة وألف للهجرة ،

وفي حياة الشيخ عبدالله خياط محطات كثيرة في مختلف مجالات الحياة .

ففي مقام واجباته ومسؤولياته الوظيفية نجد أنه مارس التدريس والإدارة ، حيث تم تعيينه مديراً للمدرسة الفيصلية بمكة المكرمة عام اثنين وخمسين وثلاثمائة وألف للهجرة .

كما عمل في هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بموجب الأمر الملكي الصادر في الثامن عشر من شهر محرم سنة سبع وأربعين وثلاثمائة وألف للهجرة .

وفي عام ثلاثة وسبعين وثلاثمائة وألف للهجرة عين مستشاراً للتعليم في مكة المكرمة ، وفي عام خمسة وسبعين وثلاثمائة وألف للهجرة أسندت له إدارة كلية الشريعة بمكة المكرمة إضافة إلى عمله الاستشاري ، كما كلف عام ستة وسبعين وثلاثمائة وألف للهجرة بالإشراف على إدارة التعليم بمكة المكرمة إضافة إلى أعماله الأخرى .

كما صدر أمر ملكي بتعيينه إماماً وخطيباً للمسجد الحرام عام ستة وسبعين وثلاثمائة وألف للهجرة .

وفي عام ثمانين وثلاثمائة وألف للهجرة صدر أمر ملكي بتعيينه رئيساً للجامعة الإسلامية في المدينة المنورة بناء على ترشيح المفتي العام للمملكة الشيخ محمد بن إبراهيم ، ولكنه طلب الإعفاء لظروفه الخاصة

فأعفي .

وفي عام اثنين وثمانين وثلاثمائة وألف للهجرة تم اختيار الشيخ عبدالله خياط عضواً في مجلس إدارتي كلية الشريعة والتربية بمكة المكرمة ومندوباً عن وزارة المعارف في اجتماعات رابطة العالم الإسلامي .

كما عمل رئيساً لمجلس إدارة دار الحديث المكية وعضواً في اللجنة الثقافية برابطة العالم الإسلامي .

وفي عام أربعة وثمانين وثلاثمائة وألف للهجرة أختير عضواً في اللجنة المنبثقة من مجلس التعليم الأعلى لوضع سياسة عليا للتعليم في المملكة .

وفي الثامن من شهر رجب من عام واحد وتسعين وثلاثمائة وألف للهجرة تأسست هيئة كبار العلماء واختير الشيخ عبدالله خياط عضواً فيها ، فشارك في اجتماعاتها وصدرت له فتاوى في ظلالها .

كما تم ترشيحه عضواً في مجمع الفقه الإسلامي التابع لرابطة العالم الإسلامي .

وفي عام واحد وتسعين وثلاثمائة وألف للهجرة صدر أمر ملكي كريم بمثابة تكريم للشيخ الخياط وتقديرٍ لجهوده الدينية والتربوية واعترافاً بفضله وذلك باستثنائه من النظام وعدم إحالته للتقاعد مدى الحياة .

كانت للشيخ عبدالله خياط إسهامات متعددة في معالجة قضايا

المجتمع عن طريق مقالاته الصحفية وأحاديثه الإذاعية إضافة إلى جهوده العلمية في البحث والتأليف .

صدر له ستة وعشرون كتاباً مختلفة الأجزاء والأحجام والموضوعات هي(التفسير الميسر) في ثلاثة أجزاء و(الخطب في المسجد الحرام) في ستة أجزاء و(دليل المسلم في الاعتقاد) و(اعتقاد السلف) و(مايجب أن يعرفه المسلم عن دينه) و(حكم وأحكام من السيرة النبوية)و(تأملات في دروب الحق والباطل) و(صحائف مطوية) و(الفضائل الثلاث) و(الرواد الثلاثة) و(على دروب الخير) و(الربا في ضوء الكتاب والسنة) و(الحدود في الإسلام) و(تحفة المسافر) و(البراءة من المشركين)و(قصة الإيمان)و(شخصيات إسلامية) و(المصدر الثاني للتشريع) و(عندما ينعكس الوضع)و(قال لي محدثي) و(التربية الاجتماعية في الإسلام) و(الخليفة الموهوب) و(مباديء السيرة النبوية) و(دروس من التربية الإسلامية) و(حركة الإصلاح الديني في القرن الثاني عشر)

وكتابه الذي وثق فيه سيرته الذاتية وذكرياته الشخصية وأسماه (لمحات من الماضي) قامت بطبعه دارة الملك عبدالعزيز عام خمسة وعشرين وأربعمائة وألف للهجرة .

توفي الشيخ الخياط في مكة المكرمة يوم الأحد السابع من شعبان عام خمسة عشر وأربعمائة وألف للهجرة بعد عمر حافل بجلائل الأعمال .

١١ - في بيت الكردي : [١]

ذلك البيتُ المكيُّ المزدهرُ علماً وفضلاً منذ القديم .

نجد في مدونات التراجم إبراهيمَ بنَ عبدالكريم الكردي الحلبي قال السخاوي عنه : قام بمكة المكرمة وكان حَسَنَ الخُلُقِ كثيرَ البِشرِ بالطلبةِ أَقْرَأَ تفسير البيضاوي ومنهاجه في الأصول وكذا المصابيح والعربية وغيرَهما ، انتفع منه طلابُه في عدة علوم وجلُّها المعاني والبيان .

تُوفِّيَ بمكة المكرمة عام أربعين وثمانمائة للهجرة .

ومن المعاصرين له إبراهيمُ بنُ محمد برهان الدين الكردي كان يوصف بأنه مؤدبُ الأطفال بمكة المكرمة وهو متولي مشيخة البيمارستان ومجددُ أوقافه .

اشتهر بالصلاح وفعل الخير .

تُوفِّيَ بمكة المكرمة عام ثلاثة وخمسين وثمانمائة للهجرة .

ومن المعاصرين لهذين العلمين علمٌ آخر هو داود بن عبدالصمد القرشي الكردي نزيل مكة المكرمة عالم فاضل سمع الحديث على أبي الفتح المراغي .

درَّس بالمسجد الحرام .

تُوفِّيَ بمكة المكرمة عام واحد وستين وثمانمائة للهجرة .

---

١ - عبدالله المعلمي ، أعلام المكيين ٢/٧٩٤-٨٠١، و: محمد علي مغربي ، أعلام الحجاز ١/ ٣٠٧-٣١٣ و: عبدالوهاب أبو سليمان ، العلماء والأدباء الوراقون في الحجاز ص٨٢.

وفي بيت الكردي نقف قليلاً مع سيرة محمد أمين بن محمد صالح الكردي الخالدي قدم مكة المكرمة بصحبة واليها محمد وجيهي باشا شيخ الوزراء بمكة وولاه نيابة الشرع الشريف بالمدينة النبوية ثم عينه مأموراً بديوان حكومة مكة المكرمة .

وبعد وفاة الوالي سنة ثلاث وثمانين ومائتين وألف ترك الوظائف الرسمية وانقطع للعلم والمجاورة .

له كتاب (حكمة الراغبين ورغبة الطالبين)

وفي إضاءة باهرة من إضاءات بيت الكردي بمكة المكرمة نسلط الضوء على سيرة علَم آخرَ من أعلامه إنه محمد صادق ماجد الكردي .

ترعرع في كنف والده المحبِّ للعلم والحريصِ على تحصيلِه فأنهى دراسته بمدرسة الفلاح بمكة المكرمة ، وتلقى العلم عن الشيوخ في حلق الدروس العلمية بها ، فنشأ كوالده شغوفاً بالعلم والعلماء والكتب ولاعجب في ذلك فأبوه محب للعلم والكتب .

في بيته تكونت له مكتبةٌ ضخمة حوت كنوزاً من المعرفة والكتب النادرة في مختلف العلوم والفنون ، وصفها الشيخ عبدالله عبدالغني خياط في كتابه لمحات من الماضي الذي أصدرته دارة الملك عبدالعزيز عام خمسة وعشرين وأربعمائة وألف للهجرة بأنها دارُ مطالعة يؤمها الزوارُ من أعظم البلاد الإسلامية ، إما ضيوفاً على صاحبها أو للمطالعة ، فلا يؤم هذه المكتبةَ طالبُ علمٍ إلا وجدها مفتوحةَ الأبواب

ووجد من صاحبها الترحيبَ وكرمَ الضيافة وحسن الوفادة .

كما وصف الشيخَ محمد صادق ماجد الكردي بأنه أستاذُ جليل تتلمذ عليه في قراءة وحفظ القرآن الكريم وتجويده .

وتحدث بإعجاب كبير عن تجربته الشخصية معه في معالجة تهيبه من الفشل في مواد الحساب والهندسة والجبر بأسلوب تربوي لطيف ومؤثر يدل على القدرة الفائقة التي يتمتع بها محمد صادق ماجد الكردي في امتصاص الخوف والتهيب من نفوس تلاميذه بالإقناع والتطمين وشحذ الهمم والتطبيق العملي لهذا كله بصبر وجَلَد لايتقنه إلا أكابرُ العلماء والفضلاء .

مما يذكر عن مسؤوليات محمد صادق ماجد الكردي الوظيفية أنه عُيِّن مديراً لدار البعثات السعودية بالإسكندرية مدة طويلة.

وفي جوانب البيت الكردي بمكة المكرمة ننتقل إلى سيرةِ عَلَمٍ من المعاصرين لهذا العلَم إنه علمٌ آخرُ مؤثِّرٌ ثقافياً وعلمياً من أعلام بيت الكردي بمكة المكرمة علمٌ ارتبط اسمه بالحركة العلمية والثقافية في مكة المكرمة من خلال أولياته ومبادراته .

إنه محمد ماجد بن محمد صالح الكردي المولود بمكة المكرمة في عام اثنين وتسعين ومائتين وألف للهجرة .

وفيها نشأ وترعرع وحفظ القرآن الكريم وتلقى العلمَ على أيدي علمائها .

كان شغوفاً بطلب العلم حريصاً على نشره ، فأنشأ مطبعة لهذه الغاية ، واحترف الطباعة وتجارة الكتب واجتمعت له مكتبةٌ خاصةٌ من أضخم المكتبات في الحجاز وضمت الآن إلى مكتبة مكة المكرمة .

مما يذكر عن الشيخ محمد ماجد الكردي ومكتبته ماسجله الدكتور عبدالوهاب أبو سليمان بأمانة قائلاً : إن تلك المكتبةَ تُعَدُّ أكبرَ مجموعات مكتبة مكة وأنفسَها ؛ إذ تحتوي على نوادر المخطوطات والمطبوعات تقع فهارسها في أربعة مجلدات خصص كل مجلد لمجموعة من العلوم والفنون وهي أول مجموعة أهديت لمكتبة مكة المكرمة .

أشار إلى هذا الفهرس الزركلي في كتاب الأعلام ، وهي صورة حية وتعبير صادق عن حياة صاحبها محمد ماجد الكردي ، الذي كان عالماً فاضلاً من العلماء البارزين في البلد الحرام ، وكان منزلُه منتدى للعلماء والأدباء وذا شهرة في العالم الإسلامي ، وهو أحد أوائل مَن أدخلوا الطباعة إلى مكة المكرمة ، حيث أسس مطبعة الترقي الماجدية سنة سبع وعشرين وثلاثمائة وألف للهجرة ، وبلغ عدد عناوينها أربعة آلاف ومائتي عنوان .

وهو الذي قام بطباعة كثير من مؤلفات العلماء المكيين وغيرهم على نفقته ، ولاسيما في عصره الذي عانى فيه كثيرٌ من العلماء والأدباء من ضيق ذات اليد ، فأثرى الحركة العلمية بينهم .

لهذا العَلَم الجهبذ عدد من المؤلفات المخطوطة ومنها كتاب(معجم

كنز العمال) وكتاب في الشّعر عنوانه (معجم التخاميس) وكتاب في الأدب عنوانه (المنتخبات الماجدية)

ومن مدرسة الفلاح خرج إلى ميدان العلمِ عَلَمٌ آخر من أعلام البيت الكردي إنه محمد طاهر بن عبدالقادر الكردي المولود بمكة المكرمة عام واحد وعشرين وثلاثمائة وألف للهجرة .

أحد أبناء مكة المكرمة نشأة وترعرعاً ، تخرج من مدرسة الفلاح عام تسعة وثلاثين وثلاثمائة وألف للهجرة ، تعلم أصول الخط العربي في مدرسة تحسين الخطوط العربية الملكية ، سنة افتتاحِها عام واحد وأربعين وثلاثمائة وألف للهجرة .

وكان يدرِّسُ فيها أساطين الخط في مصر وتركيا ، مما أهلها أن تكون من الركائز الأساس لازدهار الحياة في مجال الخط العربي في البلاد العربية ، بعد أن أصابها الركود في القرون السابقة .

فلا عجب إذا أصبح الخطاطَ الأولَ في الحجاز قاطبة عام ثمانية وأربعين وثلاثمائة وألف للهجرة .

وتشير سجلاتُه الوظيفية إلى أنه عُيِّن موظفاً بالمحكمة الشرعية الكبرى بمكة المكرمة ، ثم انتقل لتدريس مادة الخط العربي في مدارس الفلاح بجدة ، وأنه اكتسب خبرة واسعة وتجارب عديدة دفعته إلى تأليف عدة كتب عن الخط العربي وتاريخِه وأعلامِه .

وله ثَبَت دوَّن فيه لقاءاتِه ومسموعاتِه وإجازاتِه من الخطاطين في

مصر والعراق .

وتقديراً لمكانته الاجتماعية وخبراته انتُخِب عضواً في اللجنة التنفيذية لتوسعة وعمارة المسجد الحرام التي بدأت أعمالَها سنة خمس وسبعين وثلاثمائة وألف للهجرة في عهد الملك سعود بن عبدالعزيز .

ثم أصبح رئيساً لقسم التأليف والآثار التاريخية لمكتب مشروع التوسعة ، واستمر في هذا العمل حتى تقدم بطلب إحالته إلى التقاعد المبكر ؛ كي يتفرغ لتأليف كتبه التي نافت على أربعين مؤلَّفاً بين مخطوط ومطبوع .

مما يستوقفُ المتأملَ في سيرة محمد طاهر بن عبدالقادر الكردي ماعُرِفَ عنه من طيبةِ القلب والبشاشةِ المحببة والطبيعةِ الودودة والنوازعِ الخيِّرة والوفاءِ النادر .

خلَّد اسمَه خطُّه بيده المصحف الكريم الذي أُطلِقَ عليه مصحفُ مكةَ المكرمة وهو أولُ مصحف طبع فيها .

ومن كتبه (كراسة الحرمين في خط الرقعة) بأجزائه السبعة ، وكتاب (حسنُ الدعابة فيما ورد في الخط وأدوات الكتابة) وله كتاب(تاريخ الخط العربي وآدابه) الصادر عام خمسة وسبعين وثلاثمائة وألف للهجرة والموصوف بأنه في وقته فريد في مادته الخاصة والمترجمة عن التركية .

وله كتابُ (تاريخ القرآن وغرائب رسمه وحكمه) وكتاب(مقام إبراهيم عليه السلام) وكتاب (شرح الإعلام بأعلام بيت الله الحرام)

وكتاب(إرشاد الزمرة لمناسك الحج والعمرة على مذهب الإمام الشافعي) وكتاب(تحفة العباد في حقوق الزوجين والأولاد) وكتاب(التاريخ القويم لمكة وبيت الله الحرام)

وهو كتاب نفيس في تاريخ مكة المكرمة طبع عدة طبعات آخرها طبعتان بعناية معالي الشيخ الدكتور عبدالملك بن دهيش .

تُوفِّيَ الشيخ محمد طاهر كردي عام أربعمائة وثلاثمائة وألف للهجرة ودفن بالمعلاة في مكة المكرمة .

١٢ - في بيت الحمدان : [١]

بيتُ الحمدان من البيوتات العلمية بمكة المكرمة ، وسنقتصر في الحديث عنه على عَلَم بَزَّ أنداده وكانت له سيرةٌ حافلة تستحق التسجيل.

إنه العالم المحقق المدقق المجتهد الشيخ سليمان بن عبدالرحمن بن عبدالله الحمدان النجدي مولداً ومنشأ والمكي مستقراً ووفاة السلفي معتقداً الحنبلي مذهباً .

ولد الشيخ سليمان الحمدان في المجمعة عاصمة منطقة سدير من إقليم نجد سنة ثنتين وعشرين وثلاثمائة وألف للهجرة فرباه والده أحسن تربية حيث أقرأه القرآن مجوداً في سن مبكرة ثم حفظه عن ظهر قلب ثم شرع في طلب العلم بهمة عالية ونشاط ملحوظ .

قرأ مباديء العلوم على مشايخ بلده ومن بقربها ثم انتقل إلى الرياض فواصل دراسته على العلماء الكبار .

ثم كانت محطته العلمية الكبرى عندما انتقل إلى مكة المكرمة فدرس على علمائها وعلى كثير من علماء البلاد الإسلامية الوافدين إليها من الشام ومصر والهند وغيرها .

انكب على طلب العلم والاجتهاد في التحصيل حيث لازم كتب

---

١ - ترجمة الشيخ سليمان بن حمدان بقلم أحد تلاميذه ، و: محمد بن عثمان القاضي ، روضة الناظر ، ١٤٨/١، و: سليمان بن حمدان ، الدر النضيد على أبواب التوحيد ، بتحقيق عبدالإله الشايع — مقدمة المحقق .

شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم فكانت صبوحه وغبوقه وانتفع منها انتفاعاً كبيراً تجلى في صلابة عوده وقوة شوكته في العلم والفهم .

وظهر أثر ذلك كله في تآليفه وكتاباته المتعددة واستقامة لسانه في الإنشاء والخطابة .

عُرِف عن الشيخ سليمان الحمدان أنه كان حاد الطبع بصورة لافتة للنظر ، حازماً صلباً فيما يرى أنه الحق ولاسيما لجوؤه إلى الحدة والعنف والشدة في ردوده على المخالفين .

سببت له صلابته هذه بعض المشكلات وتسببت في تعرضه لبعض التنقلات من عمل لآخر ، غير أنه لم يأبه بذلك كله محتسباً صابراً ، كما لم يؤثر ماتعرض له من المخالفين في نقاء ظاهره وباطنه .

اشتهر عن الشيخ سليمان البعد عن الأضواء والشهرة ، فقد عُرِض عليه منصبٌ رفيع فاعتذر عن توليه بأمور من أبرزها عدم حبه للشهرة والظهور .

لم يزل مكباً على الدراسة والبحث والمطالعة والتنقيب عن أفراد المسائل والغوص إلى أعماق الأدلة حتى حصل على جانب كبير في كثير من العلوم وبخاصة في علمي التوحيد والحديث حيث كان آية فيهما كما كان ضالعاً في غيرهما من العلوم الشرعية كالفرائض والمصطلح بالإضافة إلى علوم العربية .

مما عرف عن الشيخ سليمان الحمدان أنه كان قليلَ الكلام كثيرَ التثبت شديدَ التحري ذكياً فطناً حاد الفهم قوي الذاكرة حاضر الجواب، كما كان وعاء من أوعية العلم سريع الحفظ والإدراك مما جعل مشايخه يتوسمون فيه النجابة والتفوق .

بل إن بعض زملائه في الدراسة لما رأوا نبوغه وتفوقه بادروا إلى التتلمذ على يديه وأخذ العلم عنه فصار معلماً ومتعلماً في ذات الوقت.

من أبرز مشايخه الشيخ عبدالله بن عبداللطيف آل الشيخ أحد أعلام الدعوة السلفية والشيخ إبراهيم بن عيسى المؤرخ المشهور والشيخ حمد ابن فارس مرجع العلماء في علوم العربية والشيخ سعد بن حمد بن عتيق والشيخ سليمان بن سحمان والشيخ عبدالله بن عبدالعزيز العنقري .

وقد أجازه جماعة من العلماء بإجازات متنوعة في رواية كثير من كتب العلم وبعضها بسند متصل وممن أجازه محدث الحجاز في وقته العلامة الشيخ أبو الفيض عبدالستار الدهلوي المكي .

وقع الاختيار على الشيخ سليمان الحمدان للعمل في القضاء حتى طلب الإعفاء منه .

ورغب في المجاورة بمكة المكرمة ليتجرد للعلم افتاء ووعظاً وتدريساً وتأليفاً ، فالتف حوله كثير من طلبة العلم وأقبلوا عليه .

اتسعت حلقته وجُعِل له كرسي في المسجد الحرام ، وانتفع الطلبة من تدريسه كثيراً لحسن إلقائه ودقة شرحه .

كان يفتتح الدرس بالبسملة والحمد والصلاة على رسول الله ﷺ والترضي عن صحابته الأطهار والترحم على علماء الأمة الأبرار وسلفها الصالح ثم يأمر أحد الطلبة بقراءة الدرس المخصص ثم يقوم بإعادة قراءة الطالب كاملة مهما طالت من حفظه ثم يقوم بشرحه .

كان حريصاً على تحرير مايلقيه على الطلاب من الدروس تحريراً بالغاً شديد التثبت لمعنى مايقوله فلا يشرح الدرس للطلبة حتى يراجع شروحه وحواشيه ويستوفي ماقاله العلماء فيه مع ضبط ألفاظه لغة ونحواً وصرفاً .

كان لايدع الطالب يقرأ عليه من عبارات الفقهاء أكثر من خمس إلى سبع مسائل ثم يشبع الكلام فيها منطوقاً ومفهوماً يفهمه السامع ويرسخ في ذهن الطالب .

وكان في كل دروسه يجمع بين الفقه والحديث ولايرى الفصل بينهما فلايحب الفقه ناشفاً بخلوه من الدليل ولايحب تطرف الزاعمين أنهم من أهل الحديث في رفضهم للفقه وفي استنقاصهم للفقهاء .

كما كان يحذِّرُ أشد التحذير من جمود أصحاب كل مذهب على كتب مذهبهم ، ومن التعصب للمذهب .

كان من عادته أنه لايقوم لأحد وهو في الدرس ، ويزجر من يرفع صوته أثناء الدرس سواء أكان طالباً أم مستمعاً .

كان تربوياً في تدريسه ، يتحين الفرص المتاحة في مايفيد ، ومن ذلك

أنه يتحرى الليالي التي يكثر فيها الناس في الحرم فيقـرر التوحيـد وهـي ليالي الإثنين والخميس والجمعة من كل أسبوع ، وأنه في رمضان يقتصر على التوحيد فقط ؛ لنظراً لكثرة رواد الحرم ، ولإخبات الناس آنذاك.

ومن طريقته في التدريس أنه يفاجيء الطلبة بالأسـئلة أثنـاء الـدرس ليعرف مدى فهمهم واستيعابهم لما يلقيه عليهم وليضمن عدم انـصراف أذهانهم عنه .

كما كان يسألهم في بداية كل درس عن الدرس السابق بحيث لاينتقل إلى درس جديد حتى يطمئن إلى أنهم قد فهموا ماقبله .

ومن خصائص تدريسه أنـه كـان يـورد طرائـفَ وحكايـاتٍ ومُلَحـاً وفكاهات ونوادر في نهاية الدرس لطرد الملل والسآمة عن الطلبة .

كان يوصي طلبته بالاحتفاظ بكتبهم ومايمليه عليهم مشايخهم ويقـول لهم : إن الاحتفاظ بالكتب والدفاتر ونحوها من خصائص طلاب العلـم الحقيقيين في كل وقت ، ويضرب لهم قدوة من نفسه ، واحتفاظه بكتبـه منذ بداية طلبه للعلم .

مما ميَّز طريقة الشيخ سليمان الحمدان في التدريس أنه كان يعامل كل طالب كأنه المسؤول عنه وحده .

وكان يحتفظ في ذاكرته العجيبة حفظاً واستذكاراً بسجل متابعة لكـل طالب عنده .

ومن الشواهد على هذا أن أحد طلابه من أهل اليمن استأذن الشيخ

سليمان الحمدان لزيارة أهله وتفقد بعض شأنهم ، فانقطع ستة أشهر كاملة ، ولما عاد لم يبدأ من الموقف الذي انتهى إليه ؛ لأنه نسيه .

فقال له الشيخ سليمان : إنك وقفت على فصل كذا من باب كذا .

عُرِف عن الشيخ سليمان الحمدان جمالُ خطِّه وجودةُ كتابتِه وسرعته فيها ، لايفتُر عن تقييد كل مايمر عليه من الفوائد والفرائد ، فيقيدها وينسخ بيده كثيراً من كتب أهل العلم ، منها على سبيل المثال ذيل ابن هادي على طبقات الحنابلة لابن رجب ويقع في نحو ست كراريس ، وكتاب طبقات ابن رجب .

ولذا كان ضمن نخبة من طلبة العلم اختارهم الشيخ عبدالله العنقري لنسخ كتاب المغني لابن قدامة لما عرف عنهم من جمال الخط وسرعة الكتابة ودقة الفهم وجودة الضبط نظراً لعدم توافر نسخة كاملة من هذا الكتاب القيم في نجد آنذاك .

فسعى الشيخ عبدالله العنقري في جمع أجزائه من كل بلد ومن كل عالم حتى حصل على نسخة كاملة ، قام بنسخها الشيخ سليمان الحمدان ورفاقه ، وبعد أن فرغوا منها قدمها الشيخ عبدالله للملك عبدالعزيز ، ففرح بها وأمر بطبعها على نفقته الخاصة ، وأن يضم إليها الشرح الكبير وهو شرح لكتاب المقنع لابن قدامة أيضاً .

وبالرغم مماذكرناه عن جدية الشيخ سليمان الحمدان ونبوغه في التوحيد والحديث والفقه فقد كانت له أشعار جيدة مما وُصِفَت به أنها

ليست من شعر العلماء الذي يفتقد إلى الحلاوة الشعرية بل كان أقربَ إلى شعر أهل الأدب في رقته وطلاوته وعذوبته وجزالة ألفاظه وسلاسة أسلوبه وقوة معانيه .

وكان شديد العناية بالكتب كثير الشراء منها حتى إن بعض القادمين من تركيا والشام والعراق ومصر والهند واليمن ممن يعرفون الشيخ سليمان الحمدان يحرصون على جلب الكتب إليه وإهدائها له لمعرفتهم بحبه لها ، فتكونت له مكتبة ضخمة تضم مطبوعات نفيسة ومخطوطات نادرة وفرائد تراثية إضافة إلى تآليفه الكثيرة .

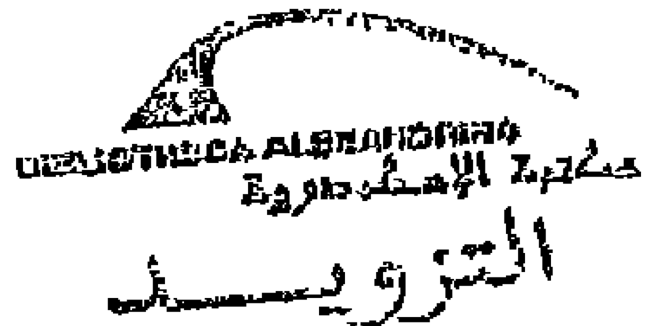
وقد انتقلت مكتبته إلى مكتبة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض في جناح مستقل يحمل اسمه .

توفي الشيخ سليمان الحمدان بالطائف سنة سبع وتسعين وثلاثمائة وألف للهجرة إثر مرض لم يمهله طويلاً ، فانتهت رحلة عَلَم من أعلام مكة المكرمة الذين أثروا حياتها العلمية والثقافية بعطاءاتهم المأثورة وبجهودهم الخيِّرة التي تترسمها الأجيال اللاحقة اقتداءً وتنافساً ، يرتقي بالهِمَم إلى أعالي قمم النجاح بإذن الله عز وجل .

الخاتمة

الحمد لله رب العالمين ؛ بنعمته تتم الصالحات ، والصلاة والسلام على أشرف الخلق ، برسالته تمت الرسالات ، وبعد :

فقد عشت في رحاب ثقافة مكة المكرمة مدة ليست قليلة ، قرأت خلالها كماً ليس بالقليل من زاد تلك الرحاب ، وعايشت كيفاً من التداعيات والتجليات ، أشرقت أضواؤه في النفس حبوراً وسروراً ، وأعشبت أمطاره هذه الكلمات التي أمام عينيك - أخي القاريء الكريم، أختي القارئة الكريمة - فإذا لم تجد فيها مايستحق أن تفرد له الصفحات فذلك أن حبيبي وحبيبك المصطفى الصدوق ﷺ قد قال : (مثل مابعثني الله به عز وجل من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً، فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس ، فشربوا وسقوا وزرعوا ، وأصاب طائفة منها أخرى إنما هي قيعان لاتمسك ماء ولاتنبت كلأ) (١)



١ - الإمام البخاري ، صحيح البخاري مع فتح الباري ، كتاب العلم ، ١/١٧٥، ومسلم، صحيح مسلم بشرح النووي ، ١٥/٤٦، واللفظ لمسلم .

غير أنه مما يفرحني أن هذا البحث برغم مايعتريه من أوجه قصور وضعف وخطأ كان محاولة ، سعيت فيها إلى :

١ = إبراز أهمية أدب الرحلات في تشكيل الصورة الثقافية لمكة المكرمة في الخوارط الذهنية لكل المسلمين ، وتسليط الضوء على جزء من ملامح هذه الصورة في كتابات الرحالة العرب ، وفي كتابات الرحالة من غيرالعرب .

٢ = إدناء تنوع المعطيات الثقافية إلى ذهن القاريء الكريم ، من خلال ماقدمه أدب الرحلات الحجازية في هذا الشأن من جهود وعطاءات مسطورة .

٣ = تأكيد الأثر المتعدي لثقافة مكة المكرمة عبر العصور المختلفة ، ليصل إلى كل أصقاع الأرض ، وتسليط الضوء على هذا الأثر من خلال المجالات التي تمثل جداول النهر ، كالمجاورة ، والمؤلفات المكية التي انتشرت في أصقاع الأرض ، والحركات الإصلاحية التي شهدتها بعض أقطار العالم الإسلامي .

٤ = تأكيد استمرار وتجدد هذا الأثر المتعدي ؛ لارتباطه باستمرار الحج بمشاعره المادية والمعنوية ، بل باستمرار هذا الدين العالمي الخاتم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

وأعجد أنه من الضرورة أن أنبه إلى ظهور الحاجة ماسةً إلى عمل موسوعي ضخم ، يجمع بين دفتيه التقصي ، والشمول ؛ لإبراز

موضوعات ومجالات ثقافة مكة المكرمة من خلال أدب الرحلات ، بحيث يستطيع هذا العمل أن يقدم صورة واضحة للمعطيات الثقافية في مكة المكرمة ، في كل سنة هجرية منذ فتحها بيد المصطفى ﷺ ، حتى يومنا هذا ، تُستقَى مادته مما كتبه الرحالة عن ثقافة مكة المكرمة ، وماتميز به كل عصر عن آخر في عناصر هذه الثقافة .

٥ = ظهور تنوع المشارب الثقافية لأعلام مكة المكرمة عبر العصور ، وأن الحياة العلمية في مكة المكرمة واضحة وجلية في تراجمهم وسيرهم الذاتية وبيوتاتها العلمية .

٦ = إلقاء الضوء على جوانب مضيئة من الجهود العلمية والثقافية التي قام بها وقدمها أولئك الأعلام الجهابذة ، مما يؤمل منه أن يحفز الهمم ، ويرتقي بالتطلعات إلى قمم العطاءات المثمرة خيراً للأمة .

هذا وبالله التوفيق ، ومنه العون والسداد ،،،،،

الفهارس

فهرس الرحلات

أولاً - رحلات الشرقيين المدروسة :

يتبع ، رحلات الشرقيين المدروسة :

ثانياً - رحلات الغربيين المدروسة :

فهرس الأعلام المترجم لهم

فهرس الموضوعات

كتب صدرت للمؤلف :

١ = حقائق وأغلاط حول الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ط١ ، نشر الهيئة العربية للكتاب بالرياض ، ١٤١٢هـ ، ط٢و٣ ، نشر دار الصميعي بالرياض ، ١٤٢٠، ١٤٢٢هـ .

٢= غض البصر، ط١ ، نشر الهيئة العربية للكتاب بالرياض، ١٤١٥هـ، ط٢ ، الرياض ١٤٢٤هـ .

٣= الظلم ظلمات، ط١ نشرالهيئة العربية للكتاب بالرياض ، ١٤١٥هـ، ط٢ ، الرياض ١٤٢٤هـ .

٤= الملك عبدالعزيز الشخصية والقيادة، ط١، نشر الأمانة العامة للاحتفال بمرور مائة عام على تأسيس المملكة العربية السعودية ١٤١٩هـ .

٥= تأملات في تاريخ الملك عبدالعزيز ، ط١ ، ١٤٢٠هـ .

٦= التطوع الدعوي، ط١، نشر جمعية البر بالرياض، فرع حي معكال والشميسي ١٤٢٢هـ .

٧= الفوائد التربوية في الصوم، ط١ ، ١٤٢٠هـ ، ط٢ ، ١٤٢٣هـ.

٨= الفوائد التربوية في الحج ، ط١ ، ١٤٢٣هـ .

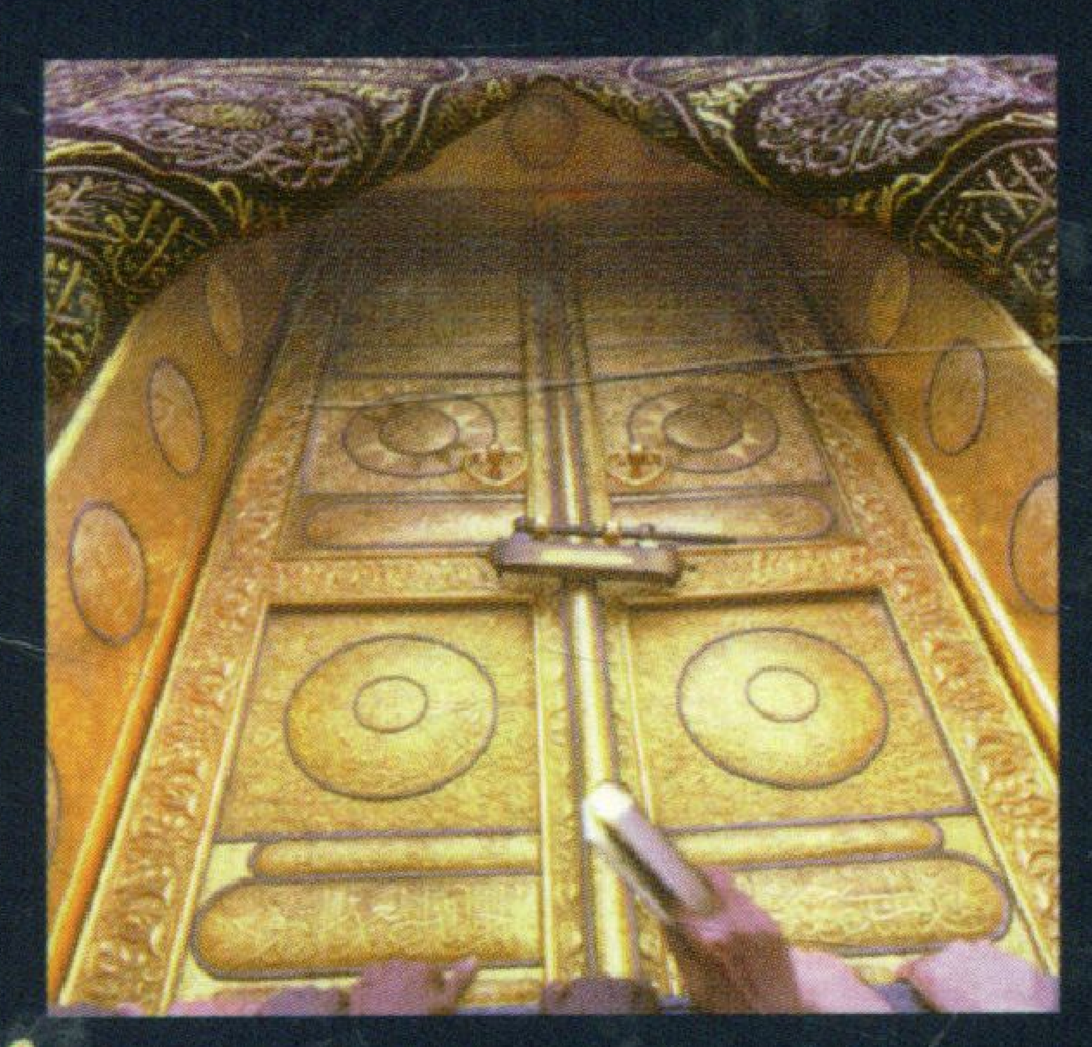
٩= الإبداء في الدعوة الإسلامية ، ط١ ، ١٤٢٤هـ .

١٠= ثقافة مكة المكرمة في أدب الرحلات وسِيَر أعلامها ، ط١ ، ١٤٢٧هـ .

كتب قيد الطبع

١ = سياسة الملك فيصل الدعوية .

٢ = الشبهات حول عالمية الدعوة الإسلامية وواقعيتها .



ثقافة مكة المكرمة



رقم الإيداع: ١٤٢٦/٧٧٥٠
ردمك: ٦-٠٥٣-٥٢-٩٩٦٠